يهدى ولا يباع

تدبر مركز تدبر للدراسات والاستشارات

ثلاثون مجلساً في التدبر

مجالس علمية وإيمانية

المجموعة الخامسة



إعداد اللجنة العلمية في مركز تدبر

طبع على نفقة بعض المحسنين جزاهم الله خيراً

دار الحضارة للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى

ثلاثون مجلساً في التدبر

مجالس علمية وإيمانية

المجموعة الخامسة



مركز تدبر للدراسات والاستشارات

ثلاثون مجلسًا في التدبر

مجالس علمية وإيمانية

المجموعة الخامسة

الطبعة الأولى

١٤٣٧هـ - ٢٠١٦م

الرياض ـ الدائري الشرقي ـ مخرج ١٥

هاتف ٢٥٤٩٩٩٣ ٠١١ ـ تحويلة ٣٣٣

ناسوخ ٢٥٤٩٩٩٦ ٠١١

ص.ب. ٩٣٤٠٤ الرمز: ١١٦٨٤

البريد الحاسوبي: tadabbor@tadabbor.com

@tadabbor www.tadabbor.com



....



فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

مركز تدبر للاستشارات التربوية والتعليمة

ثلاثون مجلسًا في التدبر (المجموعة الخامسة).

مركز تدبر للاستشارات التربوية والتعليمية - الرياض، ١٤٣٧هـ

٦٨ ص؛ ١٧ × ٢٢ سم

ردمك: ٩-٥-٩٠٧١٢-٦٠٣-٩٧٨

١- القرآن - مباحث عامة ٢- القرآن - التفسير الحديث أ. العنوان

ديوي ٢٢٧,٦ ١٤٣٧/٧٠٠٢

رقم الإيداع: ١٤٣٧/٧٠٠٢

ردمك: ٩-٥-٩٠٧١٢-٦٠٣-٩٧٨

ثلاثون مجلسًا في التدبر

مجالس علمية وإيمانية

المجموعة الخامسة

إعداد اللجنة العلمية في مركز تدبر


بسم الله الرحمن الرحيم



مُقَدِّمَة

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على إمام المتدبِّرين، وخاتم المرسلين، نبيِّنا محمَّد وعلى آله وصحبه أجمعين، أمَّا بعد:

فاستمرارًا في مسيرة هذا الإصدار المبارك من إصدارات مركز تدبُّر، سلسلة: «**ثلاثون مجلسًا في التدبُّر**» نضع بين يديك **(المجموعة الخامسة)** التي سعينا فيها إلى مواصلة التجديد والتطوير؛ لتكونَ هذه المجالس نماذجَ تطبيقية في التدبُّر يستفيد منها عمومُ المسلمين بمختلِف فئاتهم.

وإن كلَّ ما تلمسه أخي المبارك في هذه المجموعة من تطوير وتغيير إنما هو بفضل الله تعالى أوّلاً، ثم بمساهمة وإثراء كثير من القرَّاء والمتابعين، من خلال تواصلهم بالاقتراحات والملحوظات، كتب الله أجرهم وأجزل مثوبتهم.

وستلحظ في هذه المجموعة التنوُّع في الأسلوب، والتركيزَ على الموضوعات الإيمانية والعملية، التي تلامس حاجةَ المسلم وواقعه، وتعينه على إصلاح قلبه، وتساعده في تقويم سلوكه، متدبِّرًا كتاب ربِّه، مهتديًا بهداياته، مستنيرًا بنور آياته.

وستلاحظ أخي القارئ الكريم أيضًا، أن أواخر الكلمات في هذه المجموعة ضُبطت بالشكل؛ لتسهلَ قراءتها دون لحن، خاصَّةً لمن يلقيها على جماعة المسجد أو في الخُطَب والدروس واللقاءات.

نسأل الله تعالى أن تكونَ هذه المجموعة معينًا على تحقيق رؤيتنا ورسالتنا في هذا المشروع المبارك: «تدبُّر»، وإننا لا نستغني عن تواصلكم وإثرائكم كما عوَّدتمونا.

بارك الله في الجهود، وسدَّد الخطا.

وصلَّى الله وسلَّم وبارك على نبيِّنا محمَّد وعلى آله وصحبه أجمعين.

رئيس اللجنة العلمية

عبد اللطيف بن عبد الله التويجري

١٤٣٧/٧/٥هـ



جاءت هذهِ الآيةُ في سياقِ الحديثِ عن بنِي إسرائيلَ؛ حيثُ أخذَ اللهُ عليهِمُ الميثاقَ بواسطةِ سيِّدِنا موسَى ﷺ أنْ يعمَلُوا بكتابِ اللهِ، فلم يعملُوا بما فيه، ونبذُوهُ وراءَ ظهورِهِم، فقالَ اللهُ ﷻ لهم: ﴿خُذُوا مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾ [البقرة:٦٣]، ومعنى: ﴿بِقُوَّةٍ﴾؛ أي: بعزْمٍ ونشاطٍ وجِدٍّ[١]، ومعنى الآيةِ: قلنا لبنِي إسرائيلَ: خذوا الكتابَ -وهو التوراةُ- بجِدٍّ وعزيمةٍ، ومواظبةٍ على العملِ بما فيه، وتَدَارسُوهُ ولا تنسَوْا تدبُّرَ معانِيه، واعملوا بما فيهِ مِنَ الأحكامِ، فإنَّ العملَ هو الذي يجعلُ العلمَ راسخًا في النفسِ مستقرًّا عندها، لا يُلابِسُ نفوسَكم فيه ضعفٌ، ولا يَصحبُها وهَنٌ ولا وهْمٌ[٢].

فأحكامُ اللهِ والعملُ بها منهجُ حياةٍ، منهجٌ يستقرُّ في القلبِ تصوُّرًا وشعورًا، ويستقرُّ في الحياةِ وضعًا ونظامًا، ويستقرُّ في السلوكِ أدبًا وخلقًا.

---

(١) المحرر الوجيز: ١/ ١٨٠.

(٢) تفسير المراغي: ١/١٣٦.



وقد ذكرَ اللهُ ﷻ هذا التوجيهَ لبني إسرائيلَ في مواضعَ؛ منها: قولُه تعالى: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا﴾ [البقرة:٩٣]، وقوله تعالى: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [البقرة]، [الأعراف:١٧١].

ولكنَّ بني إسرائيلَ نقضوا الميثاقَ، ونَسُوا اللهَ، ووقعوا في المعصيةِ، حتى استحقُّوا غضبَ اللهِ ولعنتَهُ، وهم كذلكَ في كلِّ وقتٍ وحينٍ؛ فلْنحْذَرْ من مواثيقِهم وعهودِهم؛ لِأَنهم لم يَفُوا بعهدِ اللهِ ﷻ وميثاقِهِ، فكيفَ بعهودِهم معَ غيرِه؟!

وإذا كان الأمرُ بأخْذِ الكتابِ بقوَّةٍ لبني إسرائيلَ، فهو بالأجدرِ أمرٌ لكلِّ مؤمنٍ غَيُورٍ على دينِهِ؛ أنْ يأخذَ ما آتاهُ اللهُ من تكاليفِ الشريعةِ بالعزيمةِ والثباتِ على العملِ بها، ودعوةِ الأمَّةِ إلى اتِّبَاعِها؛ لينالَ في الدنيا رضا اللهِ، فيَحظَى بالسعادة، ويرتَقِيَ في سُلَّمِ الحضارة، وينالَ في الآخرةِ الرضوانَ الدائمَ، والنعيمَ المقيمَ. فهل مِن مُشَمِّرٍ لتلبيةِ أمرِ اللهِ تعالى؟!

﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾[1]

هاهنا وَقَفاتٌ تَدَبُّرِيَّةٌ مع هذه الآية: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ [البقرة: ١٤٨]؛ لعلَّها تَبعثُ في نفوسِنا التَّنافُسَ في سبيلِ طاعةِ اللهِ تعالى والتقرُّبِ إليه سبحانَه.

الوقفةُ الأولى: وردتِ الآيةُ في سياقِ الحديثِ عن القِبلةِ حثًّا لأمَّةِ الإسلامِ على المسابقةِ فيما فضَّلهم اللهُ تعالى به؛ من شريعتِه الغرَّاءِ، والتوجُّهِ إلى بيتِه الحرامِ؛ فقالَ تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ [البقرة: ١٤٨]؛ فالمقصودُ: المبالغةُ في الأمرِ بالتمسُّكِ بالشريعةِ والقيامِ بحقِّها؛ وهو العملُ والطاعةُ، وأعظمُ ذلك الصَّلاةُ التي يَتوجَّهون فيها إلى القِبلةِ التي اختارها اللهُ تعالى لنبيِّه ﷺ.

الوقفةُ الثانيةُ: الاستباقُ فيه زيادةٌ على المُسارعةِ؛ لأنَّ في الاستباقِ محاولةَ لسبقِ الآخرينَ، ومجاهدةً للنفسِ في ذلك؛ ولما فيه من الحثِّ على إحرازِ قَصَبِ السَّبقِ في طاعةِ اللهِ؛ قال وهيبُ بنُ الوردِ: «إنِ استطعتَ ألَّا يَسْبِقَكَ إلى اللهِ أحدٌ فافعَل».

الوقفةُ الثالثةُ: التعبيرُ بـ«الخيراتِ» دونَ «الوجهاتِ»، دالٌّ على أنَّ ما نحنُ عليه -أمَّةَ الإسلامِ- هو الخيرُ كلُّه، وهو سببٌ لحصولِ الخيراتِ كلِّها.

---

(١) كتبه: د. محمد بن عبد الله الربيعة، عضو هيئة التدريس بجامعة القصيم، وعضو الهيئة العالمية للتدبر.

الوقفةُ الرابعةُ: التعبيرُ بـ«الخيراتِ» بصيغةِ الجمعِ يُشعِرُ بكثرةِ طُرُقِ الخيرِ وتعدُّدِها، وأن الطريقَ إلى اللهِ تعالى مَلأى بالخيراتِ؛ فإذا وصلتَ إلى خيرٍ فسابِقْ في خيرٍ آخَرَ، فأنتَ تُسابِقُ إلى اللهِ تعالى.

الوقفةُ الخامسةُ: «استباقُ الخيراتِ» قدرٌ زائدٌ على «فعلِ الخيراتِ»؛ فالاستباقُ إليها يعني: أن تكونَ من أوَّلِ الفاعلينَ لها المحافظينَ عليها؛ كإدراكِ الصفِّ الأولِ، وتكبيرةِ الإحرامِ، ومواساةِ الفقراءِ، والأمرِ بالمعروفِ والنهيِ عن المنكرِ، وغيرِ ذلك.

الوقفةُ السادسةُ: ممَّا يعينُ على المسابقةِ للخيراتِ والفوزِ فيها: الاستعدادُ للطاعاتِ قبلَ وقتِها، وتدريبُ النفسِ عليها؛ كأن تُلزِمَ نفسَكَ بالمسابقةِ في طاعةٍ ما، حتى تعتادَها وتكونَ فيها من السابقينَ، ثم في طاعةٍ أخرى؛ وهكذا.

الوقفةُ السابعةُ: قال ابنُ القيِّمِ رحمه الله: «السَّابِقُونَ في الدُّنيا إلى الخَيراتِ، هُمُ السَّابِقُونَ يومَ القيامةِ إلى الجنَّاتِ»؛ ولذلكَ قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾﴾ [الواقعة].

الوقفةُ الأخيرةُ: تذكُّرُ الموتِ والآخرةِ من أعظمِ ما يُعينُ على المسابقةِ إلى الخيراتِ؛ ولهذا ختمَ اللهُ الآيةَ بقولِه: ﴿أَيۡنَ مَا تَكُونُواْ يَأۡتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ١٤٨]؛ فحَرِيٌّ بالمؤمنِ أن يغتنمَ حياتَهُ بالمسابقةِ إلى ربِّهِ لينالَ بذلك قَصَبَ السَّبْقِ في جَنَّاتِهِ.

جعلَنا اللهُ تعالى منَ المُسابقينَ إلى الخيراتِ والسابقينَ المقرَّبينَ في الجنَّاتِ.



لعلَّكَ أخي الكريمُ تسألُ: ما معنَى وِلايةِ اللهِ للمؤمنينَ؟ وبمَ استحَقَّها المؤمنونَ؛ حتى أقتدِيَ بهم؟

ودونَكَ الجوابَ:

الوَلِيُّ: الحَلِيفُ[1]، وهو الذي ينصرُ مولاهُ؛ فاللهُ يُحِبُّ عبادَهُ فيَهدِيهِم، ويزيدُهُم هدًى على هداهُم، ويتولَّى أمورَهُم، فيُقدِّرُ لهم ما فيه نفْعُهُم ومصالحُهُم، وينصرُهُم على أعدائِهِم، ويُعينُهُم فلا يَكِلُهم إلى غيرِهِ.

ومظاهرُ ولايةِ اللهِ تعالى لعبادِهِ المؤمنينَ متعدِّدةٌ؛ منها ما يأتي:

أنهُ سبحانهُ يذُبُّ عنهم الشُّبهاتِ؛ حتى يكونَ تمسُّكُهُم بالعُروةِ الوُثقَى مستمِرًّا، ويَأمَنُوا انفصامَها[2]، ويُخرِجُهُم من الشُّبَهِ في الدِّينِ- إنْ وقعت لهم- بما يَهدِيهِم ويُوفِّقُهُم إلى حلِّها، حتى يخرجوا منها إلى نورِ اليقينِ[3]. وينصرُهُم على أعدائِهِم، ويُخرِجُهم من ظُلُماتِ الكفرِ والمعاصِي والجهلِ،

(١) التحرير والتنوير: ٣/ ٣٠.

(٢) المرجع السابق: ٣/ ٣٠.

(٣) تفسير الكشاف: ١/ ٣٠٤.

إلى نورِ الإيمانِ والطاعةِ والعلمِ، ويُنجِّيهِم من ظلماتِ القبرِ والحشرِ والقيامةِ، ويُدخِلُهم جنَّاتِهِ؛ حيثُ النعيمُ المقيمُ، والراحةُ والفسحةُ والسرور.

وأمَّا بمَ استحقُّوا وِلايةَ اللهِ تعالى؟

فالجوابُ: أنهم تولَّوا ربَّهم، فلمْ يَبْغُوا عنهُ بدَلًا، ولم يُشرِكُوا به أحدًا، وأنهم اتخذُوهُ حبيبًا، فأنِسُوا به، وأنهم وَالَوْا أولياءَهُ، وعادَوْا أعداءَهُ[1].

وعند تدبُّرِ الآيةِ في سياقِها تجدُ أنَّ الوِلايةَ بحسَبِ الإيمانِ، فإذا زادَ إيمانُ العبدِ زادتْ ولايةُ اللهِ له، وزادَ توفيقُ اللهِ له في حياتِه الدينيَّةِ والدنيويَّة.

هذه ولايةُ اللهِ، وهؤلاءِ أهلُها، فلْنحْرِصْ عليها، ولْنَعَضَّ عليها بالنَّواجِذِ؛ حتى يَتحقَّقَ الفوزُ بالمطلوبْ، والنجاةُ مِنَ المرهوبْ.

ولعلَّكَ أخي الكريمُ تسألُ: وهل مِن دعاءٍ دعا بهِ النبيُّ ﷺ لِنَيْلِ ولايةِ الله؟

والجوابُ: ردِّدْ في تأمُّلٍ وخشوعٍ هذا الدعاءَ النبويَّ؛ لتتحقَّقَ لكَ ولايةُ اللهِ بعدَ الأخذِ بأسبابِها: «اللَّهُمَّ اهْدِنَا فِي مَنْ هَدَيتْ، وَعَافِنَا فِي مَنْ عَافَيتْ، وَتَوَلَّنَا فِي مَنْ تَوَلَّيتْ، وَبَارِكْ لَنَا فِي مَا أَعْطَيتْ، وَقِنَا شَرَّ مَا قَضَيتْ، إِنَّكَ تَقْضِي وَلَا يُقْضَى عَلَيكَ، إِنَّهُ لا يَذِلُّ مَن وَالَيتْ، تَباركْتَ وتَعالَيتْ»[2].

---

(١) تفسير السعدي: ص ١١١، بتصرُّف يسير.

(٢) صحيح ابن حبان (٧٢٢)، قال الألباني: صحيح، انظر المشكاة (٢٧٧٣).

﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا ﴾[1]

يقولُ اللهُ تبارك وتعالى مشجِّعًا عبادَهُ المؤمنينَ، ومقوِّيًا عزائِمَهُمْ، ومنهِّضًا هِمَمَهُمْ: ﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا ﴾ [آل عمران: ١٣٩]؛ أي: ولا تَهِنُوا وتضعُفُوا في أبدانِكُم، ولا تحزنوا في قلوبِكُم، عندما أُصِبْتُمْ بهذهِ المصيبةِ، وابتُلِيتُمْ بهذهِ البلوى؛ فإنَّ الحزنَ في القلوبِ، والوهَنَ على الأبدانِ: زيادةُ مصيبةٍ عليكم، وعونٌ لعدُوِّكُمْ عليكم، بل شجِّعُوا قلوبَكُمْ وصبِّرُوها، وادفَعُوا عنها الحزنَ، وتصلَّبُوا على قتالِ عدوِّكُم.

وذكرَ اللهُ تعالى أنَّهُ لا ينبغِي ولا يليقُ بهِمُ الوهَنُ والحزنُ -وهمُ الأعلَوْنَ في الإيمانِ- رجاءَ نصرِ اللهِ وثوابِه، فالمؤمنُ المتيقِّنُ بما وعدَهُ اللهُ منَ الثوابِ الدُّنيَوِيِّ والأُخرَوِيِّ، لا ينبغِي له ذلك؛ ولهذا قالَ تعالى: ﴿ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾.

ثم سَلَّاهُم بما حصلَ للمشركينَ منَ الهزيمةِ، وبيَّنَ الحِكَمَ العظيمةَ المترتِّبَةَ على ذلكَ، فقالَ: ﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ﴾ [آل عمران: ١٤٠]، فأنتُمْ وإيَّاهمْ قد تساويتُمْ في القَرْحِ، ولكنَّكُمْ ترجُونَ منَ اللهِ ما لا يَرجُونَ؛ كما قالَ تعالى: ﴿ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ﴾ [النساء: ١٠٤].

---

(١) تفسير السعدي: ص ١٤٩ - ١٥٠.

ومِنَ الحِكَمِ في ذلك أنَّ هذهِ الدارَ يُعطِي اللهُ منها المؤمنَ والكافر، والبَرَّ والفاجِر، وأنَّ اللهَ تعالى يُداوِلُ الأيامَ بينَ الناسِ؛ يومٌ لهذه الطائفةِ، ويومٌ للطائفةِ الأخرى؛ لأن هذه الدارَ الدنيا مُنقضِيةٌ فانيةٌ، وهذا بخلافِ الدارِ الآخرةِ؛ فإنها خالصةٌ للذينَ آمَنُوا.

ومن الحِكَمِ أيضًا: أنْ يَختبرَ اللهُ عبادَهُ بالهزيمةِ والابتلاءِ؛ ليتبيَّنَ المؤمنَ مِنَ المنافقِ؛ لأنهُ لوِ استمرَّ النصرُ للمؤمنينَ في جميعِ الوقائعِ لدخلَ في الإسلامِ مَن لا يُريدُهُ، فإذا حصلَ في بعضِ الوقائعِ بعضُ أنواعِ الابتلاءِ، تبيَّنَ المؤمنُ حقيقةً الذي يرغبُ في الإسلامِ، في الضرَّاءِ والسرَّاءِ، واليُسْرِ والعُسْرِ، ممَّن ليس كذلك؛ قال تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾.

﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾، وهذا أيضًا مِن الحِكَمِ؛ لأنَّ الشهادةَ عندَ اللهِ مِن أرفعِ المنازلِ، ولا سبيلَ لِنَيْلِهَا إلا بما يحصُلُ مِن وجودِ أسبابِها؛ فهذا مِن رحمتِهِ بعبادِهِ المؤمنينَ: أنْ قيَّضَ لهم مِنَ الأسبابِ ما تكرهُهُ النفوسُ؛ لِيَنالُوا ما يحبُّونَ مِنَ المنازلِ العاليةِ والنعيمِ المقيم.



إنَّ للمواعظِ الصادقةِ تأثيرًا مباشِرًا في القلوبِ الحيَّةِ بالإيمانِ، فتجِدُ الوعظَ -وهو الأمرُ والنهيُ والتذكيرُ المقترنُ بالترغيبِ أو الترهيبِ- بابًا من أبوابِ الحثِّ على العملْ، ومُجافاةِ الكسلْ، ومُجانبةِ المعاصي والزَّلَلْ.

وإذا كان كثيرٌ من مواعظِ الصالحين العاملين من سَلَفِ الأمَّة من الصحابةِ ومَن بعدَهم بهذه الدرجةِ من التأثيرِ، فكيف شأنُ الوعظِ إذا كان من اللهِ تعالى وتقدَّسَ؟!

يعِظُ اللهُ عبادَهُ، وهو خيرُ من يعِظُ، ومن لم يجدْ لوعظِ الله في قلبِه أثرًا، فلن تدومَ له آثارُ مواعظِ غيرِهِ؛ قال تعالى مُذكِّرًا: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٣١]، وقال أيضًا مُحذِّرًا آكلَ الرِّبا: ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٧٥]، بل وصفَ كتابَه بأنه موعظةٌ منه؛ فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [يونس]، وقال لنبيِّه نوحٍ ﷺ مُحذِّرًا: ﴿إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [هود]، وقال مُحذِّرًا عبادَه من إطلاقِ الألسنةِ في الأعراضِ: ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾﴾ [النور]، فكلُّ هذه الآياتِ يُبيِّنُ اللهُ فيها أنَّه يعظُ عبادَهُ، ويدلُّهم على ما فيه صلاحُهم.

---

(١) كتبه: الشيخ مهنَّد بن حسين المعتبي، إمام وخطيب جامع عبدالله بن عباس بجازان.

وأمَّا آيةُ هذا المجلسِ، فإنها عجيبةٌ، فإنَّ اللهَ سبحانه لمَّا ذكرَ في سورةِ النساءِ الأمرَ بأداءِ الأماناتِ إلى أهلِها، والحكمِ بين الناسِ بالعدلِ، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِ﴾ [النساء: ٥٨] -وهذه أوامرُ إلهيَّةٌ لتحقيقِ الأمانةِ والعدلِ- أردف ذلك بقولِهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ٥٨﴾ [النساء]؛ فجعلَ- سبحانه- وعظَه لنا نِعمَ الشيءُ هو! وهذه كلمةُ ثناءٍ، وجُملةُ مدحٍ عالٍ، فنعمَ الوعظُ وعظُ الله؛ فبِهِ صلاحُ القلوبِ، وحياةُ الأرواحِ، وانضباطُ الجوارحِ.

وإنما يتحقَّقُ نفعُ الوعظِ إذا عُمل به؛ ففي السورة نفسِها قال تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَشَدَّ تَثۡبِيتٗا ٦٦﴾ [النساء]، إلى آخرِ الثمراتِ!

فلنُحْيِ قلوبنا بمواعظِ ربِّنا، فثَمَّ الفلاحُ!



﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾[1]

إنَّ مَنْ أُوتيَ العدلَ ملَكَ نفسَهُ، ومَن ملَكَها نَجا.

وقد ندَب اللهُ ﷻ إلى العدلِ فعلًا وقولًا وخُلُقًا؛ قالَ تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾ [النحل: ٩٠]، وقال جلَّ وعلا: ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [المائدة]، والآياتُ في ذلكَ وفي ذمِّ الجَورِ والوعيدِ عليهِ، أشهرُ مِن أنْ تُحصَى؛ قالَ اللهُ تعالى: ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾﴾ [هود]، وقالَ سبحانَهُ: ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾﴾ [الجن]، وقال تقدست أسماؤُه: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿٤٢﴾﴾ [إبراهيم]، وفي هذا تعزيةٌ للمظلومِ، ووعيدٌ للظالم. والناظرُ في الشريعةِ يجِدُ نصوصَها قد حثَّتْ على العدلِ بجميعِ جوانبِهِ:

فهي تأمرُ بالعدلِ مع البعيدِ البغيضِ؛ يقولُ الحقُّ تباركَ وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ۚ اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾ [المائدة].

---

(١) كتبه: أ.د. ناصر بن سليمان العمر، رئيس مجلس أمناء الهيئة العالمية لتدبر القرآن الكريم، والمشرف العامُّ على مؤسسة ديوان المسلم.

وتأمرُ النبيَّ الكريمَ داودَ ﷺ بالعدلِ؛ يقولُ الحقُّ ﷻ: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [ص: ٢٦]، بل أَمَرَ اللهُ تعالى بهِ خاتمَ الأنبياءِ والرسلِ محمدًا ﷺ: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ [الشورى: ١٥]. وقالَ تعالى في بعثةِ سائرِ الرسلِ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥].

بل إنَّ الشريعةَ الغرَّاءَ تأمرُ بالعدلِ مع الكافرِ: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٨﴾ [الممتحنة].

فإذا قامَ العدلُ في البلادِ عُمِّرتْ، وإذا ارتفعَ عنِ الديارِ دُمِّرتْ، وإن الدولَ لَتدومُ معَ الكفرِ ما دامَتْ عادلة، ولا يقومُ مع الظلمِ حقٌّ، ولا يَدومُ به حكمٌ، ولو كانت مسلمةً.

وفي أجواءِ العدلِ يكونُ الناسُ في الحقِّ سواءً، لا تَمايُزَ بينهم ولا تفاضُلَ، وبالعدلِ يشتدُّ أزْرُ الضعيفِ، ويَقوَى رجاؤُه، وبالعدلِ يهونُ أمرُ القوِيِّ وينقطِعُ طمعُهُ.

كتب أحدُ الولاةِ إلى عمرَ بنِ عبدِ العزيز: إن مدينَتَنا قد خرِبَت ونُريدُ ما يعمرُها! فقال: «اعمُرْها بالعدلِ، ونظِّفْ طُرُقَها مِنَ الظلمِ».

فاتقوا الله! ﴿لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾.



هذهِ قاعدةٌ قرآنيةٌ عظيمةٌ، يحتاجُ إليها الإنسانُ في مَقامِ التمييزِ بينَ الأقوالِ والأفعالِ، والمقالاتِ والسلوكيَّاتِ.

والخبيثُ والطيِّبُ يشملانِ الأمورَ الحسيَّةَ والمعنويةَ من الأقوالِ والأفعالِ، والمعتقداتِ والأخلاقِ، والأموالِ والأماكنِ، والمآكلِ والمشارِبِ؛ فلا يستوي إيمانٌ وكفرٌ، ولا طاعةٌ ومعصيةٌ، ولا جنَّةٌ ونارٌ.

ولا ريبَ أنَّ الغرضَ مِنَ الآيةِ ليسَ مجرَّدَ الإخبارِ بأنَّ الخبيثَ لا يستوي معَ الطيِّبِ، فذلكَ أمرٌ معروفٌ ومستقِرٌّ في الفِطَر، بلِ الغرضُ: الترغيبُ في كلِّ طيِّبٍ، والتنفيرُ مِن كلِّ خبيثٍ؛ قولًا واعتقادًا، عملًا ومكسبًا.

ولمَّا كان في بعضِ النفوسِ ميلٌ إلى بعضِ الأقوالِ أو الأفعالِ أو المكاسبِ الخبيثةِ، وكانَ كثيرٌ منَ الناسِ يؤْثِرُ العاجلَ على الآجِلِ، والفانيَ على الباقِي- جاءَ التحذيرُ من الخبيثِ بأسلوبٍ عجيبٍ يقطعُ الطريقَ على مَن قد يحتجُّ بكثرةِ الآخذينَ بهِ؛ فقالَ ﷻ: ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾ [المائدة: ١٠٠]،

---

(١) كتبه: أ. د.عمر بن عبد الله المقبل، أستاذ الحديث بجامعة القصيم، رئيس مجلس إدارة الهيئة العالمية لتدبر القرآن.

وذلكَ أنَّ في بعضِ الخبائثِ والمحرَّماتِ شيئًا من اللذَّةِ الحسيَّةِ أو المعنويَّةِ؛ كالمالِ الكثيرِ المحرَّمِ، أو الوصولِ إلى اللذَّةِ الجسديةِ عن طريقِ الزِّنَى، أو الخمرِ، أو غيرهما من الملذَّاتِ المحرَّمةِ؛ فهذهِ قد تُغرِي الإنسانَ وتعجِبُه.

ولعظيمِ موقعِ هذهِ القاعدةِ وما دلَّتْ عليهِ؛ فقد كثُرَ تأكيدُ القرآنِ إيَّاها في صورٍ شتَّى؛ منها:

١- تأكيدُ ضرورةِ العنايةِ بالمكاسبِ الطيِّبةِ؛ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ [البقرة: ١٦٨]، وتتأكدُ الوصيةُ بهذا في عصرِنا الذي فُتحتْ فيه على الناسِ ألوانُ المكاسبِ المحرَّمةِ والشبهاتِ.

٢- لا يصِحُّ بحالٍ من الأحوالِ أنْ نجعلَ الكثرةَ مقياسًا لطِيبِ شيءٍ ما، وصحَّتِه وسلامتِهِ منَ المحاذيرِ الشرعيَّةِ؛ وهذا أمرٌ يصدُقُ على الأقوالِ والأفعالِ والمعتقداتِ، بل يجبُ أن نحكمَ على الأشياءِ بمدَى موافقتِها للشَّرعِ المطهَّرِ.

تأمَّلْ مثلًا في قلَّةِ أتباعِ الرسلِ وكثرةِ أعدائِهم: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦].

وختامًا؛ فلْتتيَقَّنْ -أيُّها المؤمنُ- أنَّهُ ما في الخبيثِ مِن لذَّةٍ إلا وفي الطيِّب مثلُها وأحسنُ، مع أمْنٍ مِن سوءِ العاقبةِ في الدنيا والآخرةِ.

وتيقَّنْ أيضًا أنَّ مَنْ طابتْ حياتُه وأقوالُه وأفعالُه ومعتقدُه، طاب منقلبُهُ إلى اللهِ.

اللَّهُمَّ اجعلنا ممَّن تتوفَّاهُمُ الملائكةُ طيِّبين، يا ربَّ العالمين.



* هذا مَثَلٌ ضربَه اللهُ لِلَّذي هداهُ بعدَ الضلالةِ، ومنحَهُ التوفيقَ لليقينِ الذي يُمَيِّزُ بهِ بينَ الحقِّ والباطلِ، والهُدى والضلالِ، بِمَن كان ميْتًا فأحياهُ الله، وجعلَ له نورًا يمشِي بهِ في الناسِ مستضِيئًا به.

ولقد جاءَ التشبيهُ بديعًا؛ إذْ جعلَ العبدَ قبلَ إسلامِهِ، ودخولِ نورِ الإيمانِ في قلبِهِ، كحَالِ مَن كانَ عديمَ الخيرِ، عديمَ الإفادةِ؛ كالميِّتِ، وقد تبيَّنَ بهذا التشبيهِ تفضيلُ أهلِ استقامةِ العقولِ على أضدادِهِم.

والنورُ هو: القرآنُ، وقيلَ: الإسلامُ؛ وكلاهما صحيحٌ[1].

وقولُه تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ﴾ [الأنعام: ١٢٢] يتضمَّنُ أمورًا:

أحدُها: أنه يمشِي في الناسِ بالنورِ، وهم في الظلْمةِ، فمَثَلُهُ ومثلُهُم كمَثَلِ قومٍ أظلَمَ عليهِمُ الليلُ، فضلُّوا ولم يهتدُوا للطريقِ، وآخرُ معهُ نورٌ يمشِي بهِ في الطريقِ ويراها، ويرى ما يحذَرُهُ فيها.

(١) تفسير ابن كثير: ٣/٣٣٠.

وثانِيها: أنهُ يمشِي بنورِهِ، فهم يقتبِسُون منهُ؛ لحاجتِهم إلى النورِ.

وثالثُها: أنه يمشي بنورِهِ يومَ القيامةِ على الصراطِ، إذا بقِيَ أهلُ الشركِ والنفاقِ في ظلماتِ شركِهِم ونفاقِهِم[1].

وإنَّ الإيمانَ يُنْشِئُ في القلبِ حياةً بعدَ الموتِ، ويُطلقُ فيهِ نورًا بعدَ الظلماتِ، تلكَ الحياةُ التي يستطيعُ بها معرفةَ حقائقِ الأشياءِ وتقديرَها وتصوُّرَها بحسٍّ آخرَ لم يكنْ يعرِفُهُ قبلَ هذهِ الحياةِ.

و ﴿نُورًا﴾ يبدو كلُّ شيءٍ تحتَ أشعَّتِهِ وفي مجالِهِ جديدًا كما لم يبْدُ مِن قبلُ لهذا القلبِ الذي نوَّرَهُ الإيمانُ.

ويجِدُ المؤمنُ تفسيرَ الأحداثِ والتاريخِ في نفسِهِ وعقلِهِ، وفي الواقعِ مِن حولِهِ، كأنَّهُ يقرأُ مِن كتابٍ[2].

«اللَّهُمَّ اجْعَلْ فِي قَلْبِي نُورَا، وَفِي سَمْعِي نُورَا، وَفِي بَصَرِي نُورَا، وَعَنْ يَمِينِي نُورَا، وَعَنْ شِمَالِي نُورَا، وَأَمَامِي نُورَا، وَخَلْفِي نُورَا، وَفَوْقِي نُورَا، وَتَحْتِي نُورَا، وَاجْعَلْ لِي نُورَا»[3].

---

(١) التفسير القيِّم لابن القيِّم: ص ٣٠١.

(٢) في ظلال القرآن: ٣/ ١٢٠١.

(٣) صحيح مسلم: (١٨٢٤).

﴿أَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾

لَمَّا تجرَّأ قومُ موسى عليه السلام على اللهِ جُرْأةً كبيرةً، وأساؤُوا معه الأدبَ، بقولِهم: ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ﴾ [النساء: ١٥٣]، أخذتْهمُ ﴿ٱلرَّجۡفَةُ﴾، فصَعِقوا وهَلكوا، فتضرَّع موسى عليه السلام إلى ربِّه بقولِهِ: ﴿أَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾ [الأعراف: ١٥٥]؟ والمقصودُ من الاستفهامِ في الآيةِ: الاستعطافُ والتضرُّعُ من موسى عليه السلام إلى اللهِ تعالى؛ لأن المتجرِّئينَ على اللهِ ليس لهم عقولٌ كاملةٌ تردعُهم عمَّا قالُوا وفعلُوا؛ فالسَّفاهةُ: «خِفَّةُ العقلِ واضْطرابُه»(١).

فخَشِيَ موسى عليه السلام أن يشملَ عذابُ اللهِ مَن كانَ معَ القومِ المتجرِّئينَ وإنْ لم يشارِكْهُم في سببِ العذابِ؛ كما قالَ تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗ﴾ [الأنفال: ٢٥]، وما رواهُ البخاريُّ بسندِهِ، عن زينبَ بنتِ جَحْشٍ رضي الله عنها، أنَّ النبيَّ ﷺ دخل عليها فَزِعًا يقولُ: «**لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَيْلٌ لِلْعَرَبْ، مِنْ شَرٍّ قَدِ اقْتَرَبْ! فُتِحَ الْيَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هَذَا**»، **وحلَّق بإصبعِهِ الإِبْهَامِ والتي تليها، فقالتْ زينبُ: فقلتُ: يا رسولَ اللهِ، أَنَهْلِكُ وفينا الصَّالحونَ؟! قال: «نَعَمْ؛ إِذَا كَثُرَ الخَبَثُ»**(٢).

---

(١) التحرير والتنوير: ١/ ٧٢٥.

(٢) صحيح البخاري (٣٣٣١).

وممَّا يُستفادُ من هذه الآيةِ: أنهُ على المؤمنِ أنْ يَلتزِمَ الأدبَ معَ اللهِ، وألَّا يسلُكَ مسلَكَ العِنادِ.

وعلى الدعاةِ والمصلحينَ أن يَتضرَّعوا إلى اللهِ أن يَصرِفَ عن أقوامِهم عذابَهُ، بعدَ قيامِهم قيامَ عزمٍ وتصميمٍ بواجبِهِمُ الدَّعويِّ نحوَهُم.



هذهِ معاتبةٌ مِنَ اللهِ تعالى لفريقِ المؤمنينَ الذينَ أشارُوا بأخْذِ الفداءِ يومَ بدرٍ؛ إذْ أَسَرُوا المشركينَ، وأبقَوْهُم لأجلِ الفداءِ.

والإرادةُ هنا: بمعنَى المحبَّةِ، و ﴿عَرَضَ ٱلدُّنْيَا﴾ [الأنفال: ٦٧] هو المالُ[1]، «وإنما سُمِّيَ عرَضًا؛ لأنهُ لا ثباتَ له ولا دوامَ، فكأنهُ يَعرِضُ ثم يَزولُ»[2].

فكلُّ عرَضٍ مِن أعراضِ الدنيا ليسَ فيهِ حَظٌّ مِن نفعِ الآخرةِ، فهو غيرُ محبوبٍ للهِ تعالى، وكلُّ عرَضٍ مِنَ الدنيا فيهِ نفعٌ مِنَ الآخرةِ ففيهِ محبَّةٌ مِنَ اللهِ تعالى؛ فلذلكَ عاتبَ اللهُ المؤمنينَ على أخذِهِمُ الفداءَ؛ ليُنبِّهَهُم على أنهُ حقيقٌ عليهِم ألَّا ينسَوْا في سائرِ أحوالِهِم وآرائِهِم الالتفاتَ إلى إعزازِ دينِه، وقمعِ أعدائِه، ونصرِ أوليائِه، وجعْلِ كلمتِهم عاليةً فوقَ غيرِهم.

إنَّ عرَضَ الحياةِ الدنيا لا يجوزُ أنْ يدخُلَ للمؤمنينَ في حسابٍ إذا خرجوا يجاهدونَ في سبيلِ الله، أو في حالِ خروجِهِم للقيامِ بالدعوةِ إلى اللهِ؛ فإنهُ ليسَ الدافعَ إلى الجهادِ في سبيلِ اللهِ، وليس الدافعَ إلى الدعوةِ إلى اللهِ،

---

(١) التحرير والتنوير: ١٠/ ٧٧.

(٢) تفسير الرازي: ١٥/ ٥١١.

ولا الباعثَ عليهما؛ روَى الإمامُ أبو داودَ ﷺ بسندِهِ، عن أبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنه، أنَّ رجلًا قال: يا رسولَ اللهِ، رَجُلٌ يُرِيدُ الجِهادَ فِي سَبِيلِ اللهِ ﷻ، وَهُوَ يَبتَغِي عَرَضًا مِنَ الدُّنيَا؟ فقالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لا أَجْرَ لَهُ**»، فَأَعْظَمَ ذَلِكَ النَّاسُ، فَقَالُوا لِلرَّجُلِ: عُدْ إلى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَلَعَلَّكَ لَمْ تُفْهِمْهُ، فَقَالَ الرَّجُلُ: يَا رَسُولَ اللهِ، رَجُلٌ يُرِيدُ الجِهادَ فِي سَبِيلِ اللهِ ﷻ، وَهُوَ يَبتَغِي مِنْ عَرَضِ الدُّنيَا؟ فقالَ ﷺ: «**لا أَجْرَ لَهُ**»، فَأَعْظَمَ ذَلِكَ النَّاسُ، فَقَالُوا لِلرَّجُلِ: عُدْ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فقال له الثَّالِثَةَ: رَجُلٌ يُرِيدُ الجِهادَ فِي سَبِيلِ اللهِ ﷻ، وَهُوَ يَبتَغِي عَرَضَ الدُّنيَا؟ قَالَ ﷺ: «**لا أَجْرَ لَهُ**»[1].

فعلَى المؤمنِ أنْ يُرَبِّيَ نفسَهُ في كلِّ عملٍ على ابتغاءِ مرضاةِ اللهِ، وأنْ يحمِلَها على ذلكَ مهما تحمَّلَ في سبيلِ ذلكَ مِنَ المشاقِّ، فالسلعةُ غاليةٌ!

---

(١) سنن أبي داود (٢٥١٦)، قال الألباني: حسن.



لمَّا كانَ سلفُنا الصالحُ أصحابَ قلوبٍ حيَّهْ، وأفئدةٍ نقيَّهْ، انتفعُوا بالقرآنِ وتدبَّرُوهُ حقَّ تدبُّرِه، فظهرتْ آثارُ ذلك عليهم؛ من وجَلِ القلوبِ، واقْشِعْرارِ الجلودِ، ودمْعِ العيونِ؛ كما قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢]، وقالَ ﷻ عن تأثُّرِهم بالقرآنِ الكريمِ أيضًا: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣].

وقد تحقَّقَ لهم أيضًا العملُ الصالحُ مع الرسوخِ في علومِ الشريعةِ؛ قالَ شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميَّةَ رحمه الله: «ومَن أصغَى إلى كلامِ اللهِ وكلامِ رسولِهِ ﷺ بعقلِهِ، وتدبَّرهُ بقلبِهِ؛ وجَدَ فيهِ مِنَ الفَهْمِ والحلاوةِ والهُدى وشفاءِ القلوبِ والبركةِ والمنفعةِ، ما لا يجِدُهُ في شيءٍ من الكلامِ لا منظومِهِ ولا منثورِهِ»[٢].

ولا ريبَ أنَّ هذهِ الأمورَ إنما تحصُلُ مِن خلالِ طهارةِ قلبِ العبدِ، وخاصَّةً فيما يتعلَّقُ بتعامُلِهِ معَ كتابِ ربِّهِ تعالى، ولقد حازَ سلَفُنا الصالحُ قصَبَ السَّبْقِ

---

(١) كتبه: الشيخ عبد اللطيف بن عبد الله التويجري، رئيس اللجنة العلميَّة في مركز تدبُّر.

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم: ص ٣٨٤.

في هذا المَيدانِ قولًا وعملًا؛ فقد رُويَ عن أميرِ المؤمنينَ عثمانَ بنِ عفّانَ رضي الله عنه أنه قالَ: «لو طهُرَت قلوبُنا ما شبِعتْ من كلامِ اللهِ»[1].

وهذه قَوْلَةٌ بليغةٌ جامعةٌ منهُ، وقد حقَّقَ ذلك عملًا من خلالِ قراءَتِهِ وتدبُّرِهِ لكتابِ اللهِ تعالى حتى خُرِقَ مصحفُهُ من كثرةِ إدامةِ النظرِ فيه، ورثاهُ شاعرُ الرسولِ ﷺ حسانُ بنُ ثابتٍ رضي الله عنه بقولِه:

ضَحَّوْا بِأَشْمَطَ عُنْوَانُ السُّجُودِ بِهِ ... يُقَطِّعُ اللَّيْلَ تَسْبِيحًا وَقُرْآنَا[2]

ونعتَتْهُ زوجُهُ فقالت: «فواللهِ! لقد كانَ يُحْيِي القرآنَ في ركعةٍ»[3].

فينبغِي لتالِي القرآنِ أنْ يُطهِّرَ قلبَهُ منَ الشَّهواتِ والشُّبهاتِ؛ لأنها مانعةٌ حاجبةٌ عن تدبُّرِ كتابِ اللهِ؛ وتطهيرُ القلبِ منها دافعٌ مؤثِّرٌ في فَهمِ القرآنِ وتدبُّرِه؛ قال ابنُ مسعودٍ رضي الله عنه: «إنَّ هذهِ القلوبَ أوعيةٌ، فأَشغِلوها بالقرآنِ، ولا تشغلُوها بغيرِه»[4].

ولقد قالَ اللهُ تعالى: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٧٩]، فإذا كانَ وَرَقُهُ لا يَمَسُّهُ إلا المطهَّرونَ، فمعانِيهِ لا يَهتدِي بها إلا أصحابُ القلوبِ الطاهرة[5].

---

(١) الزهد، للإمام أحمد: ص ١٨٨.

(٢) ديوانه: ص ٢٣٠، ومطلع القصيدة:

مَنْ سَرَّهُ الموتُ صِرْفًا لا مِزَاجَ لهُ ... فلْيأتِ مأسَدةً في دارِ عُثمانا

(٣) البداية والنهاية، لابن كثير: ٧/ ٢١٤.

(٤) حلية الأولياء، لأبي نعيم: ١/ ١٣١.

(٥) شرح حديث النزول، لابن تيميَّة: ص ٤٢٨، والمستدرك على فتاوى ابن تيميَّة: ١/ ١٦٩.

﴿يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا﴾

بعدَ أنْ أمرَ نوحٌ عليه السلام أهلَه والمؤمنينَ بركوبِ السفينةِ؛ لينجُوَ بهم مِنَ العذابِ، ويسيرُوا بها في رعايةِ اللهِ وحفظِهِ، في هذهِ اللحظةِ الرهيبةِ الحاسمةِ ينظُرُ نوحٌ عليه السلام فإذا أحدُ أبنائِهِ في مَعزلٍ عنهم وليسَ معهم! وتستيقِظُ في كِيانِهِ الأبوَّةُ الملهوفةُ، ويروحُ يهتِفُ بالولدِ الشاردِ: ﴿يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا﴾ [هود: ٤٢]، ولكنَّ البُنوَّةَ العاقَّةَ لم تحفِلْ بالأبوَّةِ الملهوفةِ، والفتوةَ المغرورةَ لم تقدِّرْ مدى الهولِ الشاملِ.

والأبوةُ الصالحةُ تحبُّ الذرِّيةَ الصالحةَ، والنَّسلَ الطيِّبَ، وترجو منَ اللهِ أنْ يجعلَ صفوةَ الخلقِ ومشاعلَ الهدايةِ مِن نسلِها؛ لأنها منْقَبةٌ عظيمةٌ، وكرامةٌ جسيمةٌ، لا يُدرَكُ لها نظيرٌ.

وقولُ نوحٍ عليهِ السلام لابنِهِ: ﴿ٱرۡكَب مَّعَنَا﴾ كنايةٌ عن دعوتِهِ إلى الإيمانِ بطريقةِ العرْضِ والتحذيرِ، وقد زادَ ابنُهُ- دلالةً على عدمِ تصديقِهِ بالطوفانِ- قولَه متهكِّمًا: ﴿سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِ﴾ [هود: ٤٣][1]، ظنًّا منهُ أنهُ ماءُ سيلٍ عاديٍّ، يمكنُ النجاةُ منه بالتحصُّنِ في مكانٍ عالٍ، أو جبلٍ شامخٍ، فقالَ الوالدُ الملهوفُ: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ﴾ [هود: ٤٣].

---

(١) التحرير والتنوير: ١٢/ ٧٦.

وهكذا يفرِّقُ الضلالُ بينَ الابنِ وأبيهِ، حتى لَيَأبَى الولدُ وهو بينَ يَدَيْ هذا البلاءِ المحيطِ به، أنْ يستجِيبَ لأبيهِ، وأنْ يستمِعَ له، فيخرُجُ عن أمرِهِ، وهو يدعوهُ إلى ما فيه سلامتُهُ ونجاتُهُ، وهكذا يُوفَّى كلٌّ من الأبِ والابنِ جزاءَ ما كسَبَ، فينجُو الأبُ بإيمانِهِ، ويهلَكُ الابنُ الكافرُ بكفرِهِ.

فالإيمانُ يُنجِي، والكفرُ يُهلِكُ ويُرْدِي، وعقوقُ الوالدينِ كثيرًا ما يُسبِّبُ الهلاكَ في الدنيا.

و ﴿يَبُنَىَّ﴾ تصغيرُ «ابنٍ»، وتصغيرُه هنا تصغيرُ شفَقةٍ، بحيثُ يُجعَلُ كالصغيرِ في كونهِ محلَّ الرحمةِ والشفقةِ[1].

فما أعظمَ الأبوَّةَ الصالحةَ في رحمتِها وشفقتِها، وعلوِّ همَّتِها ومطالبِها!

(١) التحرير والتنوير: ١٢/ ٧٦.

﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا﴾(١)

هكذا دعا يوسُفُ ﷺ ودعا الصالحونَ في الأممِ قبلَهُ وبعدَه، كما قالت تلكَ النخبةُ لفرعونَ: ﴿ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾ [الأعراف]، وقد شرَعَ لنا نبيُّنا ﷺ -في جملةِ ما شرعَ مِنَ الدعاء- هذا السؤالَ؛ كما في دعاءِ الجنائزِ المأثورِ: «ومَنْ توفَّيْتَهُ منَّا فتوَفَّهُ علَى الإسْلامِ»، ورُوِيَ في الدعاءِ الطويلِ قولُه: «**اللهُمَّ توفَّنا مسلمِينَ، وأحْيِنَا مسلمِينَ، وألْحِقنا بالصَّالحينَ**»، وهذا قريبٌ من دعاءِ يوسفَ ﷺ: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾ ﴾ [يوسف]، وكانَ ذلكَ منهُ بعدَ أنْ تمَّتْ له النِّعمةُ، وحازَ المُلكَ، واجتمعَ له الإخوةُ مع الأبوينِ. قال بعضُهم: ضاقت به الدنيا ﷺ فلمْ يقُل: توفَّني، أُلقِيَ في الجُبِّ، فلم يقُل: توفَّني، وأُقيمَ للبيعِ في سوقِ مَن يَزيدُ -وهو الكريمُ ابنُ الكِرامِ- فلم يقُل: توفَّني، واتُّهِمَ في عِرْضِهِ ولم يقُل: توفَّني، وحُبِسَ في السجْنِ بِضْعَ سنينَ فلم يقُل: توفَّني، ثم لمَّا تمَّ له المُلْكُ، واستقامَ له الأمرُ، ولَقِيَ الإخوةَ نادِمينَ، والأبوَيْنِ راغبَينِ، وطابتْ له الحياةُ- قال ﷺ: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا﴾، فعُلِمَ أنَّ حبَّهُ لِلقاءِ اللهِ كانَ عندَهُ أجَلَّ منَ الدنيا التي تمكَّنَ منها!

---

(١) كتبه: الشيخ إبراهيم بن عبدالله الأزرق، باحث وكاتب إسلامي.

ولله حبُّ الأنبياءِ ما أنبلَه! وإيمانُهم ما أعظمَه! ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ [البقرة:١٦٥].

وقد استنبطَ بعضُ أهلِ العلمِ مِن هذا جوازَ تمنِّي الموتِ لا لِضُرٍّ نزلَ، وقال: مِن أماراتِ صدقِ الحبِّ تـمنِّي ورودِ الموتِ على حالٍ حسنةٍ، لا لضُرٍّ نزل أو بأسٍ أصابَ، بل شوقًا إلى لقاءِ الحبيبِ!

والذي عليه أهلُ التحقيقِ أنَّ ذلك لم يكنْ تمنِّيًا للموتِ، ولا سؤالًا له منجَّزًا، لكنَّهُ سؤالٌ للثباتِ على الإسلامِ، إلى حينِ تمامِ الأجلِ، وانقضاءِ العُمُرِ؛ كما يقولُ الداعي لغيرِهِ: أماتكَ اللهُ على الإسلامِ.

قالَ ابنُ عقيلٍ: «لم يتمَنَّ يوسُفُ الموتَ، وإنما سألَ اللهَ أنْ يموتَ على صفةٍ؛ والمعنى: توفَّنِي إذا توفَّيتَنِي مسلمًا»، قال القرطبيُّ: «وهذا قولُ الجمهورِ».

فاللهُمَّ ثبِّتنا على الدِّينِ، وتوفَّنا مسلمينَ، وألحقنا بالصالحين.

﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾(١)

الشكرُ منزلةٌ عاليةٌ لا يُوفَّقُ لها إلا الخُلَّصُ مِنَ الناسِ؛ كما قالَ اللهُ تعالى: ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ ﴾ [سبأ]، وهي عبادةٌ تُثمِرُ السعادةَ والزيادةَ؛ قال سبحانَهُ وتعالى: ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إبراهيم: ٧]، ولقد دأبَ القرآنُ الكريمُ على تذكيرِ العبادِ بنِعمِ الربِّ تبارك وتعالى ليبلُغُوا بتدبُّرِها منزلةَ الشكرِ العاليةِ، حتى سُمِّيتْ سورةُ النحلِ بـ«سورةِ النِّعَمِ» التي قالَ اللهُ فيها: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [النحل].

ومِن هنا كانت هذهِ الوقفةُ التدبُّريةُ مع هذه الآيةِ: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ [النحل: ٥٣].

فمِن أعظمِ أسبابِ الشكرِ: تذكُّرُ النعمِ الربانيَّةِ، الدينيَّةِ والدنيويَّةِ، الظاهرةِ والباطنةِ، الجليَّةِ والخفيَّةِ؛ عندَ حصولِ منفعةٍ، ودفعِ مضرَّةٍ؛ ﴿ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾، فهو الذي خلقكَ جنينًا في رحمِ أمِّكَ وغذَاكْ، وعدَّلكَ وسوَّاكْ، وأعظمُ مِن ذلكَ أنْ لِلإسلامِ هداكْ، ﴿ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ ﴾ [الحجرات: ١٧]، فالحمد لله ربِّ العالمين.

---

(١) كتبه: د.عبد الله بن منصور الغفيلي، عضو هيئة التدريس بالمعهد العالي للقضاء، عضو الهيئة العالميَّة لتدبُّر القرآن الكريم.

نقولُها في كلِّ حينٍ وآنْ، ونحنُ نتقلَّبُ في نِعَمِ الرحمنْ؛ ولذا أمرَنا اللهُ مرارًا بذكرِها في مثلِ قولِهِ تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾ [المائدة: ٧]، فذِكْرُها مِن شكْرِها، فتذكَّرْ دومًا: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]، فهي تحريرٌ للقلبِ مِن عبوديةِ غيرِ اللهِ، ومانعةٌ له من التقرُّبِ للمخلوقين.

وإذا رُمْتَ النعمةَ فاطلُبْها من مُسْدِيها، وتواضعْ لمعطِيها، ولا تكنْ كالمتكبِّرِ الذي قال: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓ﴾ [القصص: ٧٨]، بل كنْ متواضعًا، واذكرْ فضلَ ربِّك: ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسۡتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي﴾ [النمل: ٤٠]، وكذلك مقالةُ العبدِ الصالحِ ذي القرنينِ: ﴿قَالَ هَٰذَا رَحۡمَةٞ مِّن رَّبِّي﴾ [الكهف: ٩٨].

ويظلُّ المؤمنُ يَذكرُ ربَّهُ شاكرًا نعمَهُ، فالذِّكرُ مِغْرافُ القلبِ؛ فمَنْ كانَ قلبُهُ شاكرا، كانَ لسانُهُ ذاكرا؛ وفي ذلك يقولُ اللهُ تعالى: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ ١٥٢﴾ [البقرة].

فردِّد صباحًا ومساءً: «اللهُمَّ ما أصبحَ بي مِن نعمةٍ أو بأحدٍ من خلقِكَ، فمنك وحدَكَ لا شريكَ لك»، واستعِنْ على شكرِكَ لربِّكَ بذكرِكَ له: «اللهُمَّ أعنِّي على ذكرِكَ وشكرِكَ وحُسْنِ عبادتِك».

﴿شِفَآءٌ وَرَحۡمَةٌ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[١]

قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحۡمَةٌ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢]

مِنَ المعلومِ أنَّ جِماعَ أمراضِ القلبِ هي أمراضُ الشبُهاتِ والشهَواتِ.

والقرآنُ الكريمُ شفاءٌ للنوعَينِ، ففيهِ مِنَ البيِّناتِ والبراهينِ القطعيَّةِ ما يُبيِّنُ الحقَّ مِنَ الباطلِ، فتزولُ أمراضُ الشُّبَهِ المُفسِدةِ للعلمِ والتصوُّرِ والإدراكِ، بحيثُ تَرى الأشياءَ على ما هي عليهِ.

وليسَ تحتَ أديمِ السماءِ كتابٌ متضمِّنٌ للبراهينِ والآياتِ على المطالبِ العاليةِ؛ من التوحيدِ، وإثباتِ الصِّفاتِ، وإثباتِ المعادِ والنبوَّاتِ، وردِّ النِّحَلِ الباطلةِ، والآراءِ الفاسدةِ، مثلُ القرآنِ الكريمِ؛ فإنهُ كفيلٌ بذلكَ كلِّهِ، متضمِّنٌ له على أتمِّ الوجوهِ وأحسنِها، وأقربِها إلى العقولِ وأفصحِها.

فالقرآنُ هو الشفاءُ على الحقيقةِ منْ أدواءِ الشُّبَهِ والشكوكِ، ولكنَّ ذلكَ موقوفٌ على فهمِهِ ومعرفةِ المرادِ منهُ؛ فمَنْ رزقَهُ اللهُ تعالى ذلكَ أبصَرَ الحقَّ والباطلَ عِيانًا بقلبِهِ، كما يرى الليلَ والنهارَ، وعلِمَ أنَّ ما عَداه من كتبِ

---

(١) إغاثةُ اللهفان: ١/ ٤٤-٦٤.

الناسِ وآرائِهم ومعقولاتِهم إنما هي علومٌ لا ثقةَ بها، بل هي آراءٌ وتقاليدُ، أو ظنونٌ كاذبةٌ لا تُغني من الحقِّ شيئًا، أو أمورٌ صحيحةٌ لا منفعةَ للقلبِ فيها، أو علومٌ صحيحةٌ قد صعُبَ الطريقُ إلى تحصيلِها، وأطالُوا الكلامَ في إثباتِها، مع قلَّةِ نفعِها؛ فهي: «لَحْمُ جَمَلٍ غَثٍّ، عَلَى رَأْسِ جَبَلٍ وَعْرٍ؛ لا سَهْلٌ فَيُرتَقَى، ولا سَمِينٌ فَيُنْتَقَلَ».

وأمَّا شفاؤُه لمرضِ الشهَواتِ فذلكَ بما فيهِ من الحكمةِ والموعظةِ الحسنةِ، بالترغيبِ والترهيبِ، والتزهيدِ في الدنيا، والترغيبِ في الآخرةِ، والأمثالِ والقَصَصِ التي فيها أنواعُ العِبَرِ والاستبصارِ، فيَرغَبُ القلبُ السليمُ إذا أبصَرَ ذلكَ فيما ينفعُهُ في معاشِهِ ومعادِهِ، ويَرغَبُ عمَّا يضرُّهُ، فيصيرُ القلبُ محبًّا للرشدِ، مبغضًا للغَيِّ.

فالقرآنُ مُزيلٌ للأمراضِ الموجِّهةِ للإراداتِ الفاسدةِ، فيَصلُحُ به القلبُ، فتَصلُحُ إرادتُهُ، ويعودُ إلى فطرتِهِ التي فَطَرهُ اللهُ عليها، فتَصلُحُ أفعالُهُ الاختياريَّةُ الكَسْبِيَّةُ، كما يعودُ البدنُ بصحَّتِهِ وصلاحِهِ إلى الحالِ الطبيعيِّ، فيصيرُ لا يَقبَلُ إلا الحقَّ، كما أنَّ الرضيعَ لا يقبلُ إلا اللبنَ.

﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾[1]

أخبرَ اللهُ سُبحانَهُ وتعالَى أَنَّ أولَ ما تكلَّم بِهِ المَسِيحُ عيسى بنُ مريمَ عليه السلام أن قال: ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ [مريم: ٣٠-٣١]، «والبركةُ: ثبوتُ الخيرِ الإلهيِّ في الشيءِ»[2]، والمبارَكُ: الذي تُقَارِنُ البركةُ أحوالَهُ وأعمالَهُ؛ ذلكَ أَنَّ اللهَ تعالى أرسلَ عيسى بنَ مريمَ عليه السلام «رحمةً لبني إسرائيلَ؛ لِيُحِلَّ لهم بعضَ الذي حُرِّمَ عليهِم، ولِيدعُوَهم إلى مكارمِ الأخلاقِ بعدَ أنْ قسَتْ قلوبُهم وغيَّرُوا مِن دينِهم، فهذه أعظمُ بركةٍ تُقارِنُه. ومِن بركتِهِ عليه السلام أنْ جعلَ اللهُ حلولَهُ في المكانِ سببًا لخيرِ أهلِ تلك البُقعةِ؛ حيثُ زيادةُ المنافعِ وكثرتُها، واهتداءُ أهلِها، وتوفيقُهم إلى الخيرِ؛ ولذلكَ كانَ إذا لقِيَهُ الجهَلَةُ والمفسدونَ انقلَبُوا صالحينَ، وانفتحَت قلوبُهم للإيمانِ والحكمةِ»[3].

ومن أعمالِهِ عليه السلام أنه كان نافعًا لغيرِهِ، معلِّمًا الخيرَ، آمرًا بالمعروفِ، ناهيًا عن المنكرِ، قضَّاءً للحوائجِ، مُرشِدًا للضَّالِّ، ناصِرًا للمظلومِ، مُغِيثًا للملهوفِ، وغيرُ ذلك من الأعمالِ الصالحةِ المرضيةِ للهِ عز وجل.

---

(١) كتبه: د. توفيق بن علي زبادي، باحث في مركز تفسير للدراسات القرآنية.

(٢) مفردات ألفاظ القرآن للراغب: ص ١١٩.

(٣) التحرير والتنوير: ١٦/ ٩٩.

والتعميمُ في قولِه تعالى: ﴿أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ تعميمٌ للأمكنةِ، فهو حيثما حَلَّ تَحُلُّ معهُ البركةُ، وعبَّرَ تعالى عن هذه الصفاتِ بصيغةِ الماضِي؛ إشارةً إلى تحقُّقِها وحدوثِها فعلًا في المستقبلِ.

فبركاتُ الأنبياءِ وورثتِهِم مِنَ الدُّعاةِ باعتبارِ نفعِهم للخَلقِ بدُعائِهم إلى طاعةِ اللهِ، وبما يُنزِّلُ اللهُ من الرحمةِ على أقوامِهم، ويدفعُ عنهم العذابَ بسببِهم.

والدعاءُ بالبركةِ من سنَّةِ الأنبياءِ عليهم الصلاةُ والسلامُ، فكانَ مِن دعاءِ نوحٍ ﷺ الذي لقَّنَهُ اللهُ ﷻ له وعلَّمَهُ إيَّاهُ: ﴿رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٩]، وقال رسولُ اللهِ ﷺ: **«مَنْ أَطْعَمَهُ اللهُ طَعَامًا فَليَقُل: اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنا فِيهِ، وَأَطْعِمْنَا خَيْرًا مِنْهُ، وَمَنْ سَقَاهُ اللهُ لَبَنًا فَليَقُل: اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنا فِيهِ، وَزِدْنَا مِنْهُ»**[١].

فلنقْتَدِ بالأنبياءِ عليهِمُ الصلاةُ والسلامُ في أحوالِهِم وأعمالِهِم ودعائِهِم؛ حتى نكونَ مباركِينَ أينما كنَّا: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام:٩٠].

---

(١) سنن الترمذي (٣٤٥٥)، قال الألباني: حسن.

﴿وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةً﴾[1]

يتقلَّب الإنسانُ في رحلةِ حياتِهِ الدُّنيويّةِ بين بلاءينِ واختبارينِ؛ مصداقَ قولِ الحقِّ سبحانَهُ: ﴿وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥]. ولعلَّ اللهَ قدَّم ذكر الشرِّ في الآيةِ لظهورِ الابتلاءِ به ووضوحِ معناهْ، وأخَّر ذكرَ الخيرِ لخَفاءِ الابتلاءِ به وغُموضِ فحواهْ؛ إذ أوَّلُ ما يتبادَرُ إلى الأذهانِ حينَ يُذكَرُ الابتلاءُ ما ظاهرُه شرٌّ وغُرمْ، على حينِ يَغفُلُ المرءُ غالبًا عن البلاءِ المستترِ في طيَّاتِ ما ظاهرُهُ خيرٌ وغُنمْ؛ ومن هنا أُتِيَ كثيرون!

أمَّا مظاهرُ الابتلاءِ بالشرِّ فكثيرةٌ معروفة، ومن أوَّلِ ما يستحضرُهُ المرءُ منها قولُهُ تعالى: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٥﴾ [البقرة]. فهذه المصائبُ الظاهرةُ تُصيبُ العبدَ امتحانًا لإرادتِهِ وصدقِ يقينِه، فمَن صَبَر على تجرُّعِ مُرِّها راضيًا مُحتسِبًا، كانت سببَ خيرٍ كبيرٍ له في الدنيا والآخرة. ومن هنا قال بعضُ السلفِ: «لو عَلِمنا كم نغرِفُ من الأجرِ بعدَ المِحَنِ لما تمنَّينا سرعةَ الفرَجِ!».

(١) كتبه: الأستاذ أيمن بن أحمد ذو الغنى، عضو رابطة الأدب الإسلاميِّ العالميَّة.

وأمَّا الابتلاءُ بالخيرِ فهو عامٌّ في كلِّ خيرٍ؛ من مالٍ وجاهٍ وسلطان، ومن قوَّةٍ وصحَّةٍ وهمَّة، ومن علمٍ وعقلٍ وفهم.. فإنَّ هذه النعمَ إن لم يُقابلْها العبدُ بالشكرِ، والاعترافِ بفضلِ اللهِ المنعمِ، وتسخيرِها في طاعتِهِ ورضوانِهِ، انقلبَت وَبالًا عليه.

فكم من عالمٍ اغترَّ بعلمِهِ فباهى به العلماء، وماری به السُّفهاء!

وكم من داعيةٍ أعجبَتهُ نفسُه؛ لإقبالِ الناسِ عليه، وازدحامِهم بين يديه!

وكم من ثريٍّ أطغاه مالُهُ؛ ففي سخَطِ اللهِ بدَّدَه، وفي المنكراتِ والشهَواتِ بذَّره!

وكم من صاحبِ جاهٍ ضنَّ بجاهِهِ كِبْرًا وغرورًا!

وكم من ذي سلطانٍ أعمَت عينيه قوَّتُهُ فبطَشَ وظَلَم!

والسعيدُ مَن وفَّقه اللهُ لالتزام الصبرِ في العُسرْ، والشُّكرِ له تعالى في اليُسرْ؛ ليكونَ فيمَن أخبر النبيُّ ﷺ عنهم بقولِه: «**عَجَبًا لأَمرِ المُؤمنِ إنَّ أَمرَهُ كُلَّهُ خَيرٌ، وليسَ ذاكَ لأَحَدٍ إلَّا لِلمُؤمنِ؛ إنْ أَصابَتهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فكانَ خَيرًا لَهُ، وإنْ أَصَابَتهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكانَ خَيرًا لَه**» [صحيح مسلم].

اللَّهُمَّ جمِّلنا بالإيمانْ، وكمِّلنا بالإحسانْ، وأعذنا من شرورِ أنفسنا، يا كريمُ يا رحمانْ.



افتتاحٌ بديعٌ من جوامعِ الكَلِمِ؛ لسورةِ المؤمنونَ التي موضوعُها الإيمانُ بكلِّ قضاياهُ ودلائلِهِ وصفاتِهِ.

والفَلاحُ: الظَّفَرُ بالمطلوبِ، والبقاءُ في الخيرِ.

فأخبرَ تعالى بفلاحِ المؤمنينَ، وإحرازِهم البقاءَ الدائمَ، وأكَّدَهُ بـ ﴿قَدْ﴾ التي تفيدُ التحقيقَ لدخولِها على الماضِي.. والسؤالُ: مَنِ المؤمنونَ الذينَ كتَبَ اللهُ لهم هذهِ الوثيقةَ، ووعدَهمْ هذا الوعْدَ؟

والجوابُ: أنَّ اللهَ سبحانَهُ حكَمَ بحصُولِ الفلاحِ لِمَن استجْمَع صفاتٍ سبْعًا؛ هي:

﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢﴾ والخشوعُ: حضورُ قلبِ المصلِّي، واستحضارُه قُرْبَ اللهِ تعالى، وسكُونُ قلبِه، واطمِئنانُ نفسِه، فتسْكُنُ حركاتُهُ، ويقِلُّ الْتِفاتُهُ.

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣﴾ واللَّغْوُ: الكلامُ الذي لا خيرَ فيهِ ولا فائدَةَ.

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤﴾ أي: هم مُؤَدُّون لزكاةِ أموالِهِم، على اختلافِ أجناسِها، مُزَكُّونَ لأنفسِهم من الأخلاقِ والأعمالِ السيئةِ التي تزكو النفسُ بتركِها.

﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ۝٥ ﴾ عنِ الزِّنَى، وما يدْعُو إليه؛ كالنَّظرِ واللمْسِ ونحوِهما.

﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ ۝٨ ﴾ أي: هم ضابِطُونَ لها حرِيصُونَ على القيامِ بها، والمراد: جميعُ الأماناتِ؛ من حقوقٍ للهِ وحقوقٍ للعبادِ.

﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ۝٩ ﴾ أي: يُداوِمُون عليها في أوقاتِها، بشروطِها وأركانِها.

فمدَحَهم تعالى في أوَّلِ الآياتِ بالخشوعِ في الصلاةِ، وفي آخرِها بالمحافظةِ عليها؛ لِأَنَّهُ لا بد منهما معًا؛ فالمُداومةُ عليها منْ غيرِ خشوعٍ، والخشوعُ منْ دونِ محافظةٍ؛ كلاهما مذمومٌ ناقصٌ[1].

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾: الموصُوفُونَ بتلكَ الصفاتِ: ﴿ هُمُ ٱلۡوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡفِرۡدَوۡسَ ﴾ [المؤمنون: ١٠، ١١]، والفِردَوسُ: أعلَى الجنَّةِ ووسطُها وأفضلُها؛ أو هو جميعُ الجنَّةِ؛ لِيَدْخُلَ بذلك عمومُ المؤمنينَ على درجاتِهم ومراتبِهم كلٌّ بحسَبِ حالِه، ﴿ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝١١ ﴾ لا يَظْعنُونَ عنها، ولا يَبْغُون عنها حِوَلًا؛ لاشْتمالِها على أكمَلِ النعيمِ وأفضلِهِ وأتمِّهِ بلا مُكدِّرٍ ولا منغِّصٍ.

إنهُ الوعدُ الصدْقُ، وعدُ اللهِ؛ لا يُخلِفُ وعْدَهُ، وإنهُ الفلاحُ في الدارينِ، يُحِسُّهُ المؤمنُ بقلبِهِ، ويَجِدُ مِصْداقَهُ في واقعِ حياتِه.

فهلْ مِن مُشَمِّرٍ مشتاقٍ لِنَيْلِ هذا الوعدِ الذي لا يُخلَفُ؟!

---

(١) تفسير السعدي: ص ٥٤٧.

﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ ﴾[1]

هذا منزلٌ منْ منازلِ الأتقياءِ الكُمَّلِ، وغايةٌ في مقاماتِ الجلالِ والجمالْ، ونهايةٌ في مراتبِ الورَعِ والكمالْ، غايةٌ عزيزةٌ غاليةٌ، ولكنَّها ممكنةٌ، وقد: «كَمُلَ من الرجال كثيرْ»، وإنما دونَها مجاهداتٌ وطولُ مَسيرْ! ومَن التزمَ جادَّةَ الطريقِ مستهدِيًا باللهِ غيرَ متَّخذٍ سِوَى القرآنِ مِنهاجًا؛ وصلَ إن شاء اللهُ.

إنها إذنْ صفةٌ من صفاتِ أهلِ اللهِ الأولياءِ الأتقياءْ، والصدِّيقينَ النُّجباءْ: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ ﴾ [الفرقان: ٧٢]، إنها البراءةُ التامَّةُ الكاملةُ من الزورِ، الزورُ بمختلِفِ معانِيه، منْ كلِّ صورِ الباطلِ، وضُروبِ المنكرِ؛ قولًا وفعلًا. لا شهودَ له عندَ هذه الثُّلَّةِ المؤمنةِ، ليسَ بمعنَى أنها لا تقترِفُ شهادةَ الزورِ عندَ استشهادِها فحسْبُ، فهذا أمرٌ طبيعِيٌّ، بل إنها لا تحضُرُ مواطِنَهُ أصلًا، ولا تشهدُ نواديَهُ وتجمُّعاتِه، فالشهادةُ هنا بمعنَى الحضورِ والشهودِ والمعايَنةِ والمخالطةِ؛ كما في قولِه تعالى: ﴿ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُ ﴾ [البقرة: ١٨٥].

فشهودُ الزورِ هنا: حضورُهُ وملابَسةُ مجالسِهِ، ومصاحبةُ أهلِهِ وهم متلبِّسونَ به. والزورُ: جامعٌ لكلِّ ضروبِ الباطلِ من شِرْكيَّاتٍ وخرافيَّاتٍ،

---

(١) مجالس القرآن للدكتور فريد الأنصاري: ص ٢٦٤-٢٦٥.

وكذبٍ وبهتانٍ، وفسقٍ وفجورٍ، فكلُّ ذلك يُقاطِعُ عبادُ الرحمنِ مجالسَهُ مقاطعةً تامَّةً، بَلْهَ أنْ يُشاركُوا فيهِ بشهادةٍ أو قولٍ، فشهادةُ الزورِ القضائيةُ من أعظمِ الموبقاتِ، وقد صحَّ قولُ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فيها لأصحابِهِ، ممَّا رواهُ الشيخانِ، عن عبدِالرحمنِ بنِ أبي بَكْرَةَ، عن أبيهِ، قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: **«ألا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الكَبَائِرِ؟!» قلنا: بلى يا رسولَ اللهِ، قال: «الإِشْرَاكُ بِاللهِ، وَعُقُوقُ الوَالِدَيْنِ»، وكانَ متكئًا فجلسَ، فقالَ: «أَلا وَقَوْلُ الزُّورِ، وَشَهَادَةُ الزُّورِ، ألا وَقَوْلُ الزُّورِ وَشَهَادَةُ الزُّورِ»**.

وهذا المعنَى داخلٌ طبعًا في مقتضَى الآيةِ من بابِ أَوْلى! لكنَّ سياقَ الدلالةِ قاضٍ بعمومِ الأوَّلِ، وهو نفيُ حضورِ الزورِ بإطلاقٍ، وهو الذي رجَّحهُ ابنُ كثيرٍ رحمه الله بدلالةِ ما بعدَهُ مِن قولِه تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴿٧٢﴾﴾ [الفرقان]؛ أي: وإذا اتَّفق مرورُهم بهِ قدَرًا كما يمرُّ عابرُ السبيلِ، كانوا كِرامًا حقًّا على أعلى ما تكونُ منازلُ كرمِ النفسِ والأخلاقِ؛ فلم يتدنَّسُوا منهُ بشيءٍ؛ لا مشاركةً، ولا افْتتانًا، ولا وقوفًا، ولا الْتِفاتًا ولا نظرًا.

﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا﴾(١)

إنَّ جوارحَ الأمِّ كلَّها التي ترصُدُها لطفلِها، قد أصبحتْ أدواتٍ معطَّلةً لا تعملُ، فغدا قلبُها -وهو مركزُ العواطفِ والمشاعرِ- كِيانًا فارغًا، لا يستقبِلُ من الطفلِ ما يصِلُهُ بأمِّهِ، مِن مشاعرَ وعواطفَ، غيرَ تلكَ العواطفِ السلبيَّةِ؛ من قلقٍ وأسًى ولَوْعةٍ.

وهذا هو السرُّ في هذا التعبيرِ المعجزِ: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا﴾ [القصص: ١٠]!

- وفي قولِه تعالى: ﴿أُمِّ مُوسَىٰ﴾: إشارةٌ إلى أنَّ هذا الوليدَ -وهو في رعايةِ اللهِ، وفي ضمانِ وعدِهِ بحفظِهِ- قد أصبحَ ذا وجودٍ معترَفٍ به في هذا المحيطِ الذي ضاعتْ فيهِ معالمُ الأطفالِ، وأُهدِرتْ فيهِ دماؤُهم، إنهُ الآنَ شخصيَّةٌ معروفةٌ، وعَلَمٌ ظاهرٌ، يأخذُ مكانَهُ في هذهِ الأحداثِ، تمامًا كما يأخُذُ فرعونُ مكانَه فيها.

- وقولُه تعالى: ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ﴾؛ أي: إنها- وقد فرَغَ قلبُها من هذا المهدِ الذي كانَ لوليدِها في سُوَيْداءِ القلبِ- أوشَكتْ أنْ تصرُخَ وتندُبَ هذا الوليدَ، وتُناديَ في الناسِ: إن هذا الطفلَ الذي وُجِدَ مُلقًى في اليمِّ،

---

(١) التفسير القرآني للقرآن: ١٠/ ٣١٥-٣١٦.

والذي التقطَهُ آلُ فرعونَ؛ هو وليدُها، وإنها لَتودُّ أن تُلقِيَ عليه ولو نظرةً واحدةً، قبلَ أنْ يصيرَ هذا المصيرَ المجهولَ!

- وقولُه تعالى: ﴿لَوۡلَآ أَن رَّبَطۡنَا عَلَىٰ قَلۡبِهَا﴾؛ أي: أمسَكْنا على قلبِها ما فيهِ مِن نوازعَ تريدُ الانطلاقَ إلى الكشفِ عن وجهِ الوليدِ.

- وقولُه تعالى: ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝١٠﴾: تعليلٌ لهذا الربطِ الذي ربطَه اللهُ سبحانه على قلبِها، وهو أنها بعدَ أنْ تتكشَّفَ لها الأمورُ، ستعلمُ أنَّ وعدَ اللهِ حقٌّ، وبهذا يتأكَّدُ إيمانُها باللهِ، ويقْوَى يقينُها بهِ، وفي هذا إشارةٌ إلى أنَّ ما يُبتلَى به المؤمنونَ الصابرونَ من مصائبَ ومِحَنٍ إنما هو تثبيتٌ لإيمانِهم، وترسيخٌ لقواعدِ هذا الإيمانِ في قلوبِهم، حيثُ ينكشِفُ لهم وراءَ كلِّ مصيبةٍ، وعقِبَ كلِّ محنةٍ، أنَّ ذلكَ لم يكنْ إلَّا عنْ تدبيرِ الحكيمِ العليمِ، وأنهم لو استقبَلوا مِن أمورِهم ما استدبَروا، لَمَا أقاموها إلَّا على هذا الوجهِ الذي أقامَهُ اللهُ ربُّ العالمين.



﴿ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡ﴾[1]

إنَّ هذه الآيةَ العظيمةَ مِن سورةِ العنكبوت: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٖ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٦٠﴾ [العنكبوت]، تُذكِّرُنا بحقائقَ كبرى لَطالَمَا نسِيناها، أو تدلُّ أفعالُنا على أنها تغيبُ عنَّا.

فهذه الآيةُ فيها توضيحُ عدَّةِ أمورٍ؛ منها:

تقديمُ لفظِ الجلالةِ على الفعلِ ﴿ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا﴾، يدلُّ على الحصرِ والاختصاصِ، وأنَّ الرزَّاقَ هو اللهُ تعالى لا غيرُهُ، والرزقَ بيدِ اللهِ سبحانَهُ.

ومع وضوحِ هذهِ الحقيقةِ لدَى المسلمينَ، نجدُ أنَّ حرصَهم على الأرزاقِ، وتَقَاتُلَهُم عليها، وارتكابَهم المحظوراتِ واقترافَهم المحرَّماتِ؛ في سبيلِ الحصولِ على المالِ- يدُلُّ على غيابِ هذه الحقيقةِ عندَ كثيرٍ من الناسِ.

كثيرٌ مِنَ الكائناتِ لا تحمِلُ رزقَها حقيقةً، ولا تحمِلُ همًّا له؛ فلا مخازنَ ولا ثلاجاتِ ولا حافظاتٍ، ومعَ هذا فاللهُ يرزقُها، فهي لا تحمِلُ رزقَها ولا تحمِلُ همَّهُ، واللهُ سبحانه يرزقُها أينما كانت، أمَّا الإنسانُ الذي يعرِفُ أنَّ اللهَ يحملُ رزقَهُ فهو دائمُ الهمِّ في طلبِ الرزقِ!

---

(١) كتبه: د. عبد المحسن بن زبن المطيري، الأستاذ بكلية الشريعة بالكويت، عضو مجلس أمناء الهيئة العالميَّة لتدبُّر القرآن الكريم، والأمين العام لرابطة علماء المسلمين.

إذا كان اللهُ تعالى يرزقُ الدوابَّ التي لا تعقِلُ، فكيفَ يخذُلُ عبادَه المؤمنينَ الموحِّدينَ؟! كيف يترُكُكَ بلا رزقٍ؟! لذلكَ قالَ سبحانَهُ: ﴿ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡ﴾؛ أي: كما رزقَها يرزُقُكم، وكما أطعَمَها يُطعِمُكُم.

ثم ختمَ اللهُ تعالى هذه الآيةَ الكريمةَ باسْمَيْنِ عظيمَيْنِ من أسمائِه الحسنَى: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾، ولهما أعظمُ الأثرِ على معنَى الرزقِ، فـ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾: يسمعُ دعاءَ طالبِ الرزقِ، ولا يخفَى عليهِ خافيةٌ، ولا تختلطُ عليه الأصواتُ.

و﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾: يعلمُ متى يَستجِيبُ لعبدِه، وما أفضلُ الأوقاتِ لرزقِهِ، وما أفضلُ أنواعِ الرزقِ التي يُعطِيها عبدَهُ؛ فهناكَ رزقُ الإيمانِ، ورزقُ العلمِ، ورزقُ الخُلُقِ، ورزقُ المالِ، ورزقُ الأولادِ، ورزقُ الحبِّ؛ كما قال ﷺ عن خديجةَ رضي الله عنها: «**إِنِّي رُزِقْتُ حُبَّهَا**».

أسألُ اللهَ تعالى أنْ يرزقَنَا من فضلِهِ، ويفتَحَ علينا مِن أبوابِ رزقِهِ.

﴿ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ﴾

في قولِهِ تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ٥٩ ﴾ [الأحزاب] دعوةٌ لنساءِ النبيِّ ﷺ وبناتِهِ ونساءِ المؤمنينَ عامَّةً؛ أنْ يَحْمِينَ أنفسَهنَّ منْ ألسنةِ السُّوءِ؛ بأنْ يُدنِينَ عليهِنَّ من ثيابِهنَّ، وأنْ يُرسِلْنَها حتى تكسُوَ أجسامَهُنَّ إلى مواقعِ أقدامِهِنَّ.

وهذا هو لباسُ المحتشِمَاتِ، على خلافِ ما كانَ عليهِ لباسُ المتبرِّجاتِ الدَّاعِيَاتِ الرجالَ إلى أنفسِهِنَّ.

وفي قولِهِ تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ هذا الزِّيَّ الساترَ -الذي تَلبَسُهُ نساءُ النبيِّ ﷺ وبناتُه ونساءُ المؤمنينَ- هو مَعْلَمٌ مِن معالِمِ المرأةِ الحرَّةِ العفيفةِ التي لا مَطمَعَ لأحدٍ فيها.

وفي قوله تعالى: ﴿ أَدۡنَىٰٓ ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ هذا الزِّيَّ ليسَ وحدَهُ الذي يقِي الحرائرَ والعفيفاتِ مِن ألسنةِ أهلِ الفجورِ والفسقِ، ولكنَّهُ- على أيِّ حالٍ- وِقاءٌ يُجمِّلُ الحرَّةَ ويُزيِّنُ العفيفةَ، ويُضفِي على طُهرِها طُهرًا، وعلى عِفَّتِها جلالًا وعفَّةً؛

فهو وإنْ لم يكنِ الكمالَ كلَّهُ؛ فهو مِن سِماتِ الكمالِ، وإنْ لم يكنِ العفَّةَ كلَّها؛ فهو مظهرٌ من مظاهِرِها[1].

«والمقصودُ بالآيةِ التي نزلتْ بعدَ استقرارِ الشريعةِ: أنْ يكونَ السترُ المأمورُ به زائدًا على ما يجبُ مِن سترِ العورةِ؛ وهو أدبٌ حسَنٌ يُبعِدُ المرأةَ عنْ مظانِّ التُّهمةِ والرِّيبَةِ، ويَحميها مِن أذى الفُسّاقِ.

واللِّباسُ الشرعِيُّ: هو الذي يسترُ جميعَ الجسدِ، ولا يشِفُّ ما تحتَهُ ولا يصفُهُ.

فإنْ كانتِ المرأةُ في بيتِها وأمامَ زوجِها فلها أنْ تلبَسَ ما تشاءُ.

﴿ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾؛ أي: إنَّ إدناءَ الجلابيبِ والتستُّرَ أقربُ إلى أنْ يُعرفْنَ أنهنَّ حرائرُ، لسْنَ بإماءٍ ولا عَواهِرَ، فلا يَتعرَّضَ لهنَّ بالأذى أهلُ الفسقِ والرِّيبةِ.

﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ لما سلفَ منهنَّ مِن إهمالِ التَّستُّرِ، ولمنِ امتثلَ أمرَهُ بعدَ أن أخلَّ بالتستُّرِ خطأً بغيرِ قصدٍ، ﴿ رَّحِيمًا ﴾ واسعَ الرحمةِ بعبادِهِ؛ إذ راعَى مصالِحَهُم وأرشَدَهم إلى هذا الأدبِ الحسَنِ»[2].

---

(١) التفسير القرآني للقرآن: ١١/ ٧٥١ - ٧٥٣.

(٢) التفسير المنير للزحيلي: ٢٢/ ١٠٨.

﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِ﴾

جاءتْ هذه الآيةُ في سياقِ الحديثِ عن القريةِ التي أرسلَ اللهُ تعالى لها المرسلينَ؛ اعتناءً مِنه بهمْ، وإقامةً للحُجَّةِ عليهمْ بتوالِي الرسُلِ إليهمْ؛ يأمرونَهُم بعبادةِ اللهِ وحدَهُ، وإخلاصِ الدينِ له، وينهونَهُم عن الشركِ والمعاصِي، فما كانَ منهم إلَّا أنْ كذَّبوا الرسلَ، واستهزؤُوا بهم!

و(الحسرةُ): شدَّةُ الندمِ مَشوبًا بتلهُّفٍ على نفعٍ فائتٍ، و(العبادُ): اسمٌ للبشَرِ، وهو جمعُ عبدٍ، وجميعُ الناسِ عبيدٌ لله تعالى؛ لأنهُ خالِقُهم والمتصرِّفُ فيهم[1]، والمرادُ بالعبادِ هنا: مكذِّبو الرسلِ. والمعنَى: يا حسرةً على العبادِ تعالَي واحضُرِي؛ فإنَّ الاستهزاءَ بالرسُلِ مِن أعظمِ الموجباتِ لحضورِكِ[2].

وهذا التفجُّعُ على مكذِّبِي الرُّسُلِ «استعارةٌ في معنَى التهويلِ والتعظيمِ؛ لِمَا فعلُوا مِنِ استهزائِهم بالرسُلِ»[3]، فإنَّ المستهزئِينَ بالنَّاصحِينَ الذينَ كانت بنصائِحِهم سعادةُ الدَّارينِ، يستحِقُّونَ أنْ يتحسَّروا على أنفسِهم،

---

(١) التحرير والتنوير: ٢٣/ ٨.

(٢) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: ٦/ ٢٩٥.

(٣) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جُزَي: ٢/ ١٨١.

وَيَتَحَسَّرَ عليهم المُتحَسِّرونَ[1]، فهي حالٌ بائسةٌ مؤسفةٌ تنتهي بأصحابِها إلى شرٍّ وخيمٍ، وبلاءٍ عظيمٍ!

يا حسرةً على العبادِ؛ تُتاحُ لهم فرصةُ النجاةِ فيُعرِضُونَ عنها، وأمامَهم مصارِعُ الهالكينَ قبلَهُم لا يتدبَّرونَها، ولا يَنتفِعُون بها، ويَفتَحُ اللهُ لهم أبوابَ رحمتِهِ بإرسالِ الرسلِ إليهم حينًا بعدَ حينٍ؛ ولكنَّهم يتجافَونَ أبوابَ الرحمةِ، ويُسيئون الأدبَ مع اللهِ[2].

فما أعظمَ مقامَ الرُّسُلِ الكرامِ، ووَرَثَتِهِم من الدعاةِ الناصحين! الذينَ يدْعونَ مَن ضَلَّ إلى الهدَى، ويَصبِرونَ منهم على الأذَى، ويُبَصِّرونَ بنورِ اللهِ أهلَ العمَى. فكم من قتيلٍ لإبليسَ قد أحيَوْهُ، وكم من ضالٍّ تائهٍ قد هدَوْهُ! فما أحسنَ أثرَهُم على الناسِ، وما أقبحَ أثرَ الناسِ فيهم!

وما أقبحَ شقاءَ المستهزئينَ بالرسلِ الكرام، ووَرَثَتِهم من الدعاةِ الناصحينَ في كلِّ عصرٍ وحينٍ! وما أطولَ عناءَهم، وأشدَّ جهلَهم! حيثُ كانوا بهذه الصفةِ القبيحةِ، التي هي سببٌ لكلِّ شقاءٍ وعذابٍ ونَكالٍ.

---

(١) تفسير أبي السعود: ٧/ ١٦٥.

(٢) في ظلال القرآن: ٥/ ٢٩٦٧.

٢٤

﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم﴾[١]

إنَّ الإنسانَ مجبولٌ على السعيِ نحوَ التفوُّقِ، والبحثِ عن الأفضلِ، فتجِدُ التاجِرَ يسعَى لتنميةِ تجارتِهِ، والموظَّفَ يسعَى للترقِّي، والطالِبَ يسعَى للتفوُّقِ، وهو ما أكَّدَهُ القرآنُ الكريمُ في قولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفُورُ﴾ [الملك: ٢]، فقد جعلَ سِرَّ خلْقِ الموتِ والحياةِ، وسببَ التفاضُلِ بينَ الناسِ: حُسْنَ العملِ.

ولذلك أمَرَنا اللهُ سبحانه وتعالى أنْ نتَّبِعَ أحسَنَ ما أُنزِلَ إلينا مِن ربِّنا؛ فقال: ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ [الزمر: ٥٥]، قال السَّعْدِيُّ: «ممَّا أمرَكُم بهِ مِنَ الأعمالِ الباطنةِ... ومن الأعمالِ الظاهرة... وأنواعِ الإحسانِ؛ ممَّا أمرَ اللهُ به؛ وهو أحسنُ ما أُنزِلَ إلينا مِن ربِّنا»[٢]. ويقولُ الآجُرِّيُّ: «صفةُ قومٍ إذا سمِعُوا القرآنَ تتبَّعوا من القرآنِ أحسنَ ما يتقرَّبُونَ بهِ إلى اللهِ ﷻ ممَّا دلَّهم عليه مولاهُمُ الكريمُ؛ يَطلُبونَ بذلك رضاهُ، ويَرْجُونَ رحمتَهُ»[٣].

---

(١) كتبه: د. محمد بن مصطفى السيد، عضو الهيئة العالميَّة لتدبُّر القرآن.

(٢) تفسير السَّعدي: ص ٨٥٩.

(٣) أخلاق حملة القرآن: ص: ٨.

ويقولُ الشّنقيطِيُّ: «أي: يُقدِّمونَ الأحسنَ الذي هو أشدُّ حُسنًا، على الأحسنِ الذي هو دونَهُ في الحُسْنِ، ويقدِّمونَ الأحسنَ مطلقًا على الحَسَنِ»[1].

وأعمالُ الخيرِ متفاوتةٌ بحسَبِ الزمانِ والمكانِ والحالِ، لكنَّ الآيةَ نظَّمتْ أوْلويَّاتِ عملِ الخيرِ، ودعَتنا إلى الارتقاءِ في البحثِ عن الأفضلِ، وعدمِ الاكتفاءِ بعملِ الخيرِ أيًّا كان، وكلَّما سعَى المرءُ نحوَ الأفضلِ؛ كان عملُه أكثرَ إتقانًا وأجرًا، ولابدَّ من المبادرةِ في ذلك: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الزمر: ٥٥]، حتى ننالَ البُشْرَى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ١٧ - ١٨].

والتعبيرُ بقولِهِ تعالى: ﴿يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾، يدلُّ على تجدُّدِ الاستماعِ، وتجدُّدِ الاتِّباعِ؛ قال ابنُ تيميَّةَ رحمَه الله: «والمحْمُودُونَ الذين أثنَى اللهُ عليهم هم المتَّبِعُونَ لذلك استماعًا وتدبُّرًا وإيمانًا وعملًا»[2].

فاللَّهُمَّ اجعلنا منهم.

---

(١) أضواء البيان:٧/٤٨.

(٢) الاستقامة:١/٢٧٧.

﴿وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ﴾[1]

هذا أمرٌ عظيمٌ موجَّهٌ للنبيِّ ﷺ ولأتباعِهِ مِن بعدِهِ؛ بالاستقامةِ كما أمرَ اللهُ تعالى.

فما الاستقامةُ؟ وما دَلالةُ تقييدِها بقولِه: ﴿كَمَآ أُمِرۡتَ﴾؟

وهذا السؤالُ مفتاحٌ مهمٌّ لفهمِ الآيةِ وتدبُّرِها.

والنظرُ في سياقِ الآيةِ، وتأمُّلُ ما قبلَها وما بعدَها، ومعرفةُ ما سِيقَت لأجلِهِ- يُعِينُ على فَهمِ المرادِ منها، ويَفتحُ آفاقًا لتدبُّرِها.

فقد وردَ هذا التوجيهُ الكريمِ: ﴿وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ﴾ ضمنَ جملٍ عشرٍ، اشتمل عليها قولُه تعالى: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ١٥﴾ [الشورى]؛ وهي آيةٌ عظيمةٌ مباركةٌ، «لا نظيرَ لها سِوى آيةِ الكُرسِيِّ»؛ كما قالَ ابنُ كثيرٍ.

---

(١) كتبه: د. محمد بن عبد الله القحطاني، الأستاذ المشارك في جامعة الملك خالد بأبها.

وبتأمُّلِ سياقِ الآيةِ؛ تتبيَّنُ الحقائقُ الآتية:

- أهميَّةُ الاستقامةِ؛ حيثُ تكرَّرَ الأمرُ بها في القرآنِ، وأُمِرَ بها الرسولُ ﷺ والمؤمنونَ، وكلُّ أمْرٍ خُوطِبَ به العظماءُ فهو عظيمٌ.

- الاستقامةُ كلمةٌ جامعةٌ؛ تعني: تحقيقَ العبوديةِ لله تعالى؛ بفعلِ الأوامرِ واجتنابِ النواهِي، وتشملُ استقامةَ القلبِ والجوارحِ، وتقتضِي المداومةَ على ذلك حتى المماتِ.

- شرطُ صحَّةِ الاستقامةِ الإخلاصُ للهِ تعالى، وموافقةُ شرعِهِ؛ فلا يطلبُ العبدُ مرضاةَ أحدٍ سِوَى اللهِ، ولا يخرجُ عمَّا شرعَهُ اللهُ؛ فهي مهمَّةٌ شاقَّةٌ، تحتاجُ إلى علمٍ قبلَها، ويقظةٍ في أثنائِها، وصبرٍ ومداومةٍ عليها؛ فليسَ الشأنُ في امتثالِ الأمرِ: ﴿وَٱسۡتَقِمۡ﴾، ولكنَّ الشأنَ كلَّ الشأنِ في التقيُّدِ بـ﴿كَمَآ أُمِرۡتَ﴾!

- أكثرُ الناسِ حاجةً للاستقامةِ: الدعاةُ إلى اللهِ، وكلُّ مسلمٍ صادقٍ هو داعيةٌ إلى اللهِ حسَبَ قدرتِهِ؛ فقد جاءَ الأمرُ بالاستقامةِ بعدَ الأمرِ بالدعوةِ إلى التوحيدِ، واستقامةُ الدعاةِ: قيامُهم بما يَدْعُون إليهِ، واستمرارُهم عليه بلا فتورٍ.

وفي الأمرِ بالاستقامةِ بعدَ الأمرِ بالدعوةِ، إشارةٌ إلى أنَّ كمالَ الدعوةِ إلى الحقِّ لا يحصُلُ إلا إذا كانَ الداعِي مستقيمًا في نفسِه.

- أخطرُ شيءٍ يصرِفُ العبدَ عن الاستقامةِ، ويَحولُ بينَها وبينَه: اتِّبَاعُ أهواءِ المبطِلِينَ؛ فمَنِ اتَّبَعَ أهواءَهم هَوَى وخَرَّ من رفعةِ الاستقامةِ إلى سحيقِ الضلالةِ.

فاللهُمَّ وفِّقْنا للاستقامةِ على دينِكَ كما أمرتَنا، وثبِّتْنا عليها حتى نلقاكَ راضيًا عنَّا.



﴿أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ﴾[1]

إنَّ شأنَ المؤمنِ إذا ضاقت بهِ الحِيَلُ، وانقطعَتْ بهِ السُّبُلُ، أنْ يلجأَ إلى ربِّهِ فيدعُوَه، وهذا نبيُّ اللهِ نوحٌ عليهِ السلام، قضَى عمرَهُ في دعوةِ قومِهِ: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ [العنكبوت: ١٤]، دعاهُمْ بكلِّ السبُلِ ليلًا ونهارًا، سِرًّا وجِهارًا، فلما تقدَّم بهِ العُمرُ، وأعْيَتهُ الحِيَلُ، دعا ربَّهُ؛ ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ ﴿١٠﴾﴾ [القمر].

وفي ذكرِ الربوبيَّةِ هنا ﴿رَبَّهُۥٓ﴾ ما يشيرُ إلى معانِي الحفظِ والرعايةِ والحمايةِ، فهو يدعُو ربَّهُ الذي حفِظَهُ ورعاهُ وسدَّدهُ، ربَّهُ الذي يحفَظُ جميعَ الخلقِ ويُدبِّرُ أمورَهم، فكانَ نصُّ دعائِهِ: ﴿أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ﴾؛ أشارَ إلى نفسِهِ بقولِهِ: ﴿أَنِّي﴾، ووصفَهَا بما يدُلُّ على ضعفِهَا أمامَ قوَّةِ اللهِ وقهرِهِ، فقالَ: ﴿مَغْلُوبٌ﴾؛ أي: وقعتْ عليَّ الغَلَبَةُ من قومِي الذين أفْنيتُ عمرِي في دعوتِهِم، وهو ما تُبيِّنُهُ الآيةُ السابقةُ لهذهِ الآيةِ: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴿٩﴾﴾ [القمر]، وجعلَ الغلبةَ واقعةً عليهِ: ﴿أَنِّي مَغْلُوبٌ﴾، لا على دعوتِهِ، فلم يقلْ: غُلِبَتْ دعوتِي، أو غُلِبَ دينِي!

---

(١) كتبه: أ. د. عُويِّض بن حمود العَطوي، أستاذ البلاغة بجامعة تبوك.

وقولُه هذا وصفٌ لضعفِهِ، وقد جعلَهُ وسيلةً لطلبِ نصرِ اللهِ سبحانَهُ، كما قال زكريًّا عليهِ السلام: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ ﴾ [مريم].

ثم رتَّبَ على بيانِ ضعفِهِ طلبَ النصرِ؛ فقال: ﴿ فَٱنتَصِرْ ﴾، وهنا لم يذكُرْ نفسَهُ، فلم يقُلْ: فانصُرْنِي، بل قالَ: ﴿ فَٱنتَصِرْ ﴾، فالمهمُّ هو انتصارُ الدعوةِ، ففي الضعفِ أظهرَ نفسَهُ، وفي النصرِ تناسَاهَا.

وقولُه: ﴿ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴾، كلماتٌ موجَزةٌ عظيمةُ الدَّلالةِ، اختصَرتِ العمرَ الطويلَ في سبيلِ الدعوةِ إلى اللهِ.

وكان الدعاءُ موجَزًا، وجاءَ النصرُ مفصَّلًا: ﴿ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ ﴾ [القمر].

يا لها مِن آياتٍ تُبيِّنُ قدْرَ ضعفِ المخلوقِ أمامَ عظمةِ الخالقِ سبحانَه!

﴿أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾

جاءتْ هذهِ الآيةُ في سياقِ الحديثِ عن يومِ الحُدَيْبِيَةِ، حينَ اضطربَتْ قلوبُ المؤمنينَ مِن قهر الكفَّارِ لهم، ودخولِهم تحتَ شروطِهِمُ التي لا تحمِلُها النفوسُ، فبيَّنتِ الآيةُ عنايةَ اللهِ تعالى بالمؤمنينَ بإصلاحِ نفوسِهم، وإذهابِ خواطرِ الشيطانِ عنهم، وإلهامِهم الحقَّ في ثباتِ عزْمِهم، وقرارةِ إيمانِهم.

و﴿ٱلسَّكِينَةَ﴾: الطُّمأنينةُ والثباتُ[1]؛ أي: أنزلَ اللهُ سبحانَهُ في قلوبِهم السكونَ والطُّمَأنينةَ بسببِ الصُّلح والأمنِ؛ ليعرِفُوا فضلَ اللهِ تعالى عليهم بتيسيرِ الأمنِ بعدَ الخوفِ، والهُدنةِ بعدَ القتالِ؛ فيزدادوا يقينًا إلى يقينِهم[2].

قال ابنُ عباسٍ ﵄: لما آمَنُوا بالتوحيدِ زادَهُم العباداتِ شيئًا شيئًا، فكانوا يَزْدادُونَ إيمانًا إلى إيمانِهم، حتَّى قالَ لهم: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣]، فمنَحَهم أكملَ إيمانِ أهلِ السماواتِ والأرضِ[3].

---

(١) تفسير المراغي: ٢٦/ ٨٤.

(٢) تفسير الزمخشري: ٤/ ٣٣٤.

(٣) المحرر الوجيز: ٥/ ١٢٧.

فكانَ في ذلك الحادثِ خيرٌ عظيمٌ لهم، كما كان فيه خيرٌ للنبيِّ ﷺ بأنْ كانَ سببًا لتشريفِهِ بالمغفرةِ العامَّةِ، ولإتمامِ النعمةِ عليه، ولهدايتِهِ صراطًا مستقيمًا، ولنصرهِ نصرًا عزيزًا.

والسَّكينةُ حينَ يُنزِّلُها اللهُ في قلبٍ، تكونُ طُمَأنينةً وراحةً، ويقينًا وثقةً، ووقارًا وثباتًا، واستسلامًا ورِضًا.

يقولُ ابنُ القيِّمِ رحمه الله: «كان شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميَّةَ رحمه الله إذا اشتدَّتْ عليهِ الأمورُ: قرأَ آياتِ السكينةِ[1]، وسمعتُه يقولُ في واقعةٍ عظيمةٍ جرَتْ له في مرضِهِ، تَعجِزُ العقولُ عن حملِها- من محاربةِ أرواحٍ شيطانيَّةٍ، ظهرتْ له إذ ذاك في حالِ ضعفِ القوَّةِ- قال: فلما اشتدَّ عليَّ الأمرُ، قلتُ لأقاربي ومَنْ حولي: اقرؤُوا آياتِ السَّكِينةِ، قالَ: ثم أقلعَ عنِّي ذلك الحالُ، وجلستُ وما بي قَلَبَةٌ»[2].

فلْنقرأْ آياتِ السَّكينةِ بتدبُّرٍ؛ حتى يطمئنَّ القلبُ، ويرتاحَ البالُ، وتذهبَ عنَّا شدائدُ الأمورِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى أخبرَ عن إنزالِها على رسولِهِ ﷺ وعلى المؤمنينَ في مواضعِ القلقِ والاضطرابِ.

---

(١) سورة التوبة (الآيات: ٢٦، ٤٠)، وسورة الفتح (الآيات: ٤، ١٨، ٢٦).

(٢) قَلَبَة: ألَمٌ وعِلَّة. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر: ٤/ ٩٨.

٢٨



إنَّ الحديثَ هاهنا سيتناول هَدْيَ قولِ اللهِ تعالى: ﴿لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [المجادلة:١٠].

فأنتَ إذا تأمَّلتَ هذهِ الآيةَ وجَدتَّ أنَّ مِن أعظمِ مقاصدِ الشيطانِ: إدخالَ الحزَنِ على المؤمنِ، وأدركتَ أن مِن أعظمِ مقاصدِ الشريعةِ: إسعادَ المؤمنِ، وطَرْدَ الحزَنِ عنه.

قال اللهُ ﷻ: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾.

وفي هذا إشارةٌ إلى أنَّ الشيطانَ لا يَقِفُ عن محاولةِ تكديرِ صفوِ المؤمنِ، وإزعاجِهِ في كلِّ حالٍ؛ فتراهُ يُذكِّرُهُ بما يسوءُهُ، ويُمَنِّيهِ بالأمانيِّ الباطلةِ التي تجلِبُ له الشقاءَ، وتراهُ أيضًا يجلِبُ عليه الذكرياتِ الأليمةَ والاحتمالاتِ السيِّئةَ، والخيالاتِ المثبِّطةَ عنِ العملِ.

---

(١) كتبه: د. محمد بن إبراهيم الحمد، عضو هيئة التدريس بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة القصيم، والمشرف العامُّ على موقع دعوة الإسلام.

فإذا استجابَ الإنسانُ لذلك؛ فصارَ يستدعِي تلك الخواطرَ، ويجترُّ تلكَ المآسيَ، ويسترسِلُ مع الاحتمالاتِ الرديئةِ، والظنونِ السيِّئةِ- عاشَ في ألمٍ وضِيقٍ، وصارَ يأكلُ بعضُه بعضًا، ويعذِّبُ نَفْسَه بنفسِه.

أمَّا إذا قطَعَ تلك الوارداتِ، ودرَأَها عن نفسِه ما استطاعَ، واشتغَلَ بما يَعْنِيهِ، ونظَرَ إلى الجوانبِ المشرقةِ في الحياةِ، وفي سيرتِهِ، واستعاذَ منَ الشيطانِ ووساوسِهِ- كَبُرَتْ نَفْسُه، وعَلَتْ هِمَّتُه، وكثُرَ نشاطُه، وزادَ إقبالُه، وانشرحَ صدرُه، وعظُمَ إنتاجُه.

وهذا ممَّا يفسِّرُ لنا سرَّ النجاحِ عندَ بعضِ الناسِ، وسرَّ الإخفاقِ عندَ آخرينَ؛ فالنجاحُ يَكْمُنُ في كونِ الناجحينَ يتوكَّلونَ على اللهِ، ويستحضرونَ أنَّ كيدَ الشيطانِ ضعيفٌ، وأنهُ ليس بضارِّهم شيئًا إلا بإذنِ اللهِ.

والإخفاقُ يكمُنُ في كونِ المخفقينَ يسْتَرسِلونَ معَ الأوهامِ، ويَدَعُونَ كيدَ الشيطانِ يستحوذُ على أفكارِهم، ويأخُذُ بمجامعِ قلوبِهم، فيُقعِدُهم عن العملِ، ويُفْضِي بهم إلى البَطالةِ والكسلِ.

فالآيةُ الكريمةُ تُشيرُ إلى أنهُ ينبغِي للمؤمنِ أنْ يكونَ مشرقَ النفسِ، مبتهجًا بالحياةِ، مطمئِنَّ الخاطرِ، بعيدًا عن كلِّ ما يكدِّرُ عليه صفوَهُ؛ فذلكَ ممَّا يبعثُهُ إلى قوَّةِ الإقبالِ على اللهِ، والحرصِ على ما ينفعُهُ في أمورِ دينِهِ ودنياهُ؛ ذلكَ أنَّ المبتهجَ بالحياةِ يزيدُهُ ابتهاجُهُ قوَّةً إلى قوَّتِه، فيكونُ أقدرَ على الجِدِّ، وحسْنِ الإنتاجِ.



هذا ما أخبرَ اللهُ تعالى بهِ عن مقالةِ نفرٍ مِنَ الجنِّ حينَ استمعُوا إلى قراءةِ النبيِّ ﷺ، وما وجدُوهُ في أنفسِهم مِنَ الدهشةِ والانبهارِ والاستعظامِ، وهم يسمعُونَ كلامًا غيرَ مألوفٍ لهم، ولا يجرِي على ما سمِعُوه من كلامِ الخلقِ، لقد وجدوا كلامًا لا يُشبِهُ كلامَ الناسِ في لفظِهِ ومعناهُ، وهمْ بذلكَ يُعبِّرونَ عن صوتِ الفِطرةِ التي انتفضَتْ فيهم، وقد أشرَقَ عليها نورُ القرآنِ العظيمِ.

يصِفُونَ دهشةَ أسماعِهِم وقلوبِهم وعقولِهم حينَ غمرتْهُم أعاجِيبُ القرآنِ في اللفظِ والمعنَى، وقد جاءَ هذا الوصفُ في سياقِ الثناءِ على النفَرِ المؤمنينَ الذينَ استقْبلُوا القرآنَ بهذهِ الرُّوحِ المنصِفَةِ السوِيَّة اليَقِظَةِ الحيَّةِ التي استشعَرتْ عظمةَ كتابِ اللهِ تعالى.

اختصرَ الجنُّ تلكَ المعانيَ العظيمةَ في كلمةٍ واحدةٍ: ﴿عَجَبًا﴾، اختصرُوها في إثارتِهِ للدهشةِ في كلِّ لفظةٍ وجملةٍ ومعنًى، إنَّهُ وصفٌ دقيقٌ لِمَا يشعُرُ به كلُّ مؤمنٍ وهو يتلقَّى القرآنَ دونَ حُجُبٍ أو أستارٍ، سيجِدُ نفسَ المشاعِرِ في روحِهِ، ولذَّةَ الدهشةِ في أعماقِهِ، يجدُها في سمعِهِ وفي قلبِه.

---

(١) كتبه: د. عبدالله بن بلقاسم بن عبدالله.

سيجدُ الدهشةَ في قَصَصِهِ وأحكامِهِ وأخبارِهِ، سيجدُها حين تَبهَرُهُ عِظاتُ القرآنِ وتشريعاتُهُ، ووعدُهُ ووعيدُهُ، وبيِّناتُهُ وحُجَجُهُ، سيجدُ دهشةَ القرآنِ حينَ يكونُ معهُ في فرحِهِ وحزَنِهِ، ومرضِهِ وصحَّتِهِ، وقوَّتِهِ وضعفِهِ. سيجدُ العجبَ في شفاءِ القرآنِ لأَدْواءِ قلبِهِ، وضِيقِ صدرِهِ، سيَبهَرُهُ القرآنُ حينَ يقرَؤُهُ في الشدائدِ والمخاوفِ والآلامِ. سيَبهَرُهُ حينَ تُشرِقُ أنوارُ هداياتِهِ في ظلماتِ الطريقِ، وتَستَبِينُ بآياتِهِ الدُّروبُ في حالِكاتِ الظلامِ، سيجدُ شيئًا مختلِفًا من آثارِهِ، شيئًا لا يُشْبِهُ الأشياءَ، سيجدُ مواساةً لا تُشبِهُ مواساةَ مُحبِّيهِ، ونصحًا لا يُماثِلُ نصيحةَ مُقرَّبيهِ، وعزاءً لم يسمَعْ مثلَهُ مِن أشفَقِهم علَيهِ.

ستتكرَّرُ دهشتُهُ معَ كلِّ لفظٍ يفهمُهُ، ومعنًى يتدبَّرُهُ، سيتعاظَمُ انبهارُه وهو يرى نفوذَ الوحْيِ في أعماقِ رُوحِهِ، وتأثيرَهُ العظيمَ في فطرتِهِ.

إنها دهشةٌ متجدِّدةٌ، وانبهارٌ لا ينطفِئُ، وشعورٌ بالتعظيمِ لا يتوقَّفُ. سيبقى مع كثرةِ التَّردَادِ عجبًا، ومع عُمقِ التأمُّلِ مُبهِرًا، ومع مُداومَةِ التدبُّرِ مدهشًا.



أخبرَ اللهُ سبحانه وتعالى عن حالِ الأبرارِ، الذينَ آمَنوا بقلوبِهم، وعمِلُوا الصالحاتِ بأبدانِهم بأنهم خيرُ البريَّةِ.

والبَرِيَّةُ: جميعُ الخَلقِ؛ لأن اللهَ تعالى بَرَأَهُمْ، وأَوجَدَهم بعدَ العَدَمِ[1].

وهؤلاءِ الأبرارُ استحقُّوا هذهِ الخيريَّةَ؛ للأسبابِ الآتيةِ:

- أنهم عبدُوا اللهَ وعرفُوه.

- أنهم صدَّقُوا بما جاءَ به النبيُّ ﷺ.

- أنهم عمِلُوا صالحَ الأعمالِ، فبذلُوا النفسَ في سبيلِ اللهِ وجهادِ أعدائِه، وبذلُوا نفيسَ المالِ في أعمالِ البِرِّ، وأحسنُوا معاملةَ خلقِه.

فكلُّ عبدٍ مؤمنٍ صالحٍ: هو من خيرِ البريَّةِ.

وهذهِ الخيريةُ التي استحقُّوها حكمٌ منَ اللهِ قاطعٌ لا جدالَ فيه، ولا رادَّ له.

---

(١) المحرر الوجيز: ٥/ ٥٠٨.

وجزاءُ هؤلاءِ الأبرارِ:

جنَّاتُ عَدنٍ خالدينَ فيها أبدًا.

رِضَا اللهِ عنهم؛ بما قاموا به من مراضِيه.

روى الإمامُ مسلمٌ بسندِهِ، عن أَبي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «**إِنَّ اللهَ يَقُولُ لأَهْلِ الجَنَّةِ: يَا أَهْلَ الجَنَّةِ، فَيَقُولُونَ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ، وَالخَيْرُ فِي يَدَيْكَ، فَيَقُولُ: هَلْ رَضِيتُمْ؟! فَيَقُولُونَ: وَمَا لَنَا لاَ نَرْضَى يَا رَبِّ، وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ؟! فَيَقُولُ: أَلاَ أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ؟! فَيَقُولُونَ: يَا رَبِّ، وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُ: أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي فَلاَ أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا**»(١).

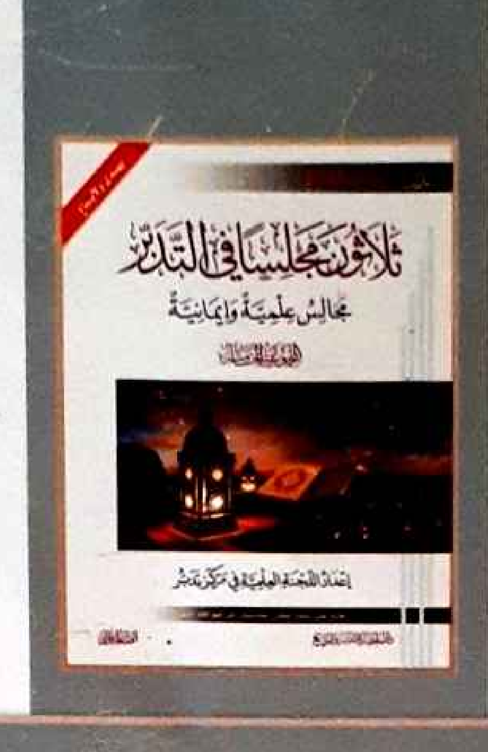
ومن بلاغةِ القرآنِ تقديمُ الثناءِ عليهم في قولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ﴾، على بشارتِهم في قولِه تعالى: ﴿جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾؛ «ليكونَ ذكرُ وعدِهم كالشكرِ لهم على إيمانِهم وأعمالِهم»(٢)، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ شَكُورٌ﴾ [الشورى:٢٣]، سبحانَه وتعالى يَغفرُ الكثيرَ من الزَّلَلْ، ويشكرُ القليلَ من العملْ، فيُعطِي ﷻ عبدَهُ ما يُشْكَرُ عليهْ، ثم يَشْكرُهُ على إحسانِهِ إلى نفسِه لا على إحسانِهِ إليهْ.

---

(١) صحيح مسلم: (٧٣١٨).

(٢) التحرير والتنوير: ٣٠/ ٤٨٥.


فهرس





رغبة في التعاون مع إخواننا المسلمين في إحياء هذه المجالس في المساجد والبيوت، جاءت فكرة «مجالس تدبر القرآن»، وستكون ضمن سلسة متتابعة -بمشيئة الله تعالى-؛ لتكون امتدادًا لبقية الإصدارات العلمية والتربوية التي سبق نشرها، وتهدف إلى تحقيق رؤيتنا - أن يتدبر القرآن كل من يقرؤه- في هذا المشروع العظيم.

وإذ نقدم هذه المجالس الثلاثين في «مجموعتها الثانية» - والتي حرر كثيراً منها عدد من الأعضاء المؤسسين لمشروع تدبر- فإننا نرجو الله تبارك وتعالى أن تحقق أهدافاً منها:

- أن تكون معينةً للإمام في مسجده -وخاصة في شهر رمضان- وللخطيب في منبر الجمعة، في تناول بعض القضايا المهمة -التي يحتاجها الناس- من منظور تدبري، وفق أصول علمية للتدبر.

- أن تكون مادةً مناسبة للمجالس التي يعقدها عدد كبير من الآباء مع أزواجهم وأولادهم في بيوتهم، سواء في رمضان أو غيره.

- أن تكون عونًا لمن أحب أن يقرأ مادة مختصرةً في المنتديات أو المجالس أو الاجتماعات العائلية.

ناصر العمر

tadabbor@tadabbor.com

للتواصل مع الدار: ص. ب: ١٠٢٨٢٣ الرياض ١١٦٨٥
فاكس: ٢٧٠٢٧١٩- المبيعات والتوزيع: ٢٤١٦١٣٩- فاكس: ٢٤٢٢٥٢٨
المنطقة الغربية: جوال: ٠٥٠٧٧٧٠٤٢١
البريد الإلكتروني daralhadarah@hotmail.com
موقعنا الإلكتروني www.daralhadarah.com.sa
الرقم الموحد: ٩٢٠٠٠٠٩٠٨





